مواقف عصيبة في حياة الرسول ﷺ

للداعية الإسلامي

يوسف عبد الغني كيوان

شيخ مسجد السلاب [شربين]

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: مواقف عصيبة في حياة الرسول

إعـــــداد: يوسف عبد الغني كيوان

رقم الإيداع:

الطبعة الأولى ٢٠١٣

مكتبة جزيرة الورد

القاهـرة : ٤ ميـــدان حليـم خلـف بنـــك فيصـــل

ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٤

tokoboko_5@yahoo.com



قال تعالى:{ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾} [إبراهيم: ١٣ - ١٤].

قال تعالى:{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾} [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

قال تعالى:{ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾} [العنكبوت: ٦٩].

* * *

الإهــداء

- من الله وإلى الله القوي المتين

- إلى رسل الله الذين جاهدوا في الله حق جهاده حتى أتاهم اليقين

- إلى الدعاة إلى الله على بصيرة الذين تحملوا في تبليغها المشاق والصعاب

- إلى المبتلين والذين نزل بهم البلاء ـ فصبروا وصابروا لله رب العالمين

- إلى كل مسلم ومسلمة يحب أن يأخذ القدوة من رسول الله ﷺ وسائر المرسلين

* * *

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، أحمدك ربى في السراء والضراء وفي الشدة والرخاء، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله إمام المتقين وسيد الغر المحجلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد؛

في ظل الأجواء التي نحياها والأيام التي نعيش فيها، نرى الهجمة الشرسة على الإسلام ونبي الإسلام، من أفلام مغرضة، ومقالات تافهة، وكل ذلك ليس وليد هذه الأيام، وإنما له جذوره القديمة ومواقفه العميقة.

وما من إنسان منا إلا مرّ في حياته موقف أو مواقف كان لها الأثر الإيجابي أو السلبي في حياته، ومن خلال هذا الموقف إما أنه صمد وانطلق إلى الأمام، أو أنه رجع القهقرى يجر ألم الخيبة والنقصان، أما المواقف في حياة النبي ﷺ فهي كثيرة أكثر من أن تحصى أو تُعد، ولكن هي إسهامات على طريق النور أتلمس فيها مواقف الشدة والمعاناة التي مرت برسول الله ﷺ وكيف تعامل معها وصبر بالرغم من أنه مؤيد من الله جل وعلا، وفي هذه المواقف لست بصدد سرد قصص تاريخي

إلا أن المقصود هو أخذ مواطن العبرة والعظة من كل موقف في شخص كل إنسان منا وفي شخص الأمة الإسلامية، ولعلى لم أتعرض في هذه المواقف في هذا الكتاب الذي سميته (مواقف عصيبة في حياة الرسول ﷺ) إلى وفاة أولاده وإن كان الأولاد هم فلذة الكبد وقرة العين نظرا لمرور وحدوث هذه الحالة في كثير من حياتنا، وتلك سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، أما ما تناولته في هذه الصفحات كان لها الأثر في الحياة الدعوية والمنهج الإسلامي النبوي، وعلى حياة المسلمين بصفة عامة، فهى بحق مواقف عصيبة في حياة الرسول ﷺ، وما أحوجنا إلى استلهام الدروس والعبر منها في حياتنا الآن وصدق الله

حيث قال:{ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ } [الأحزاب: ٢١].

وقد اشتمل الكتاب على فصلين الأول: زهرات من الشمائل المحمدية، والثانى: (الرحمة... والعناء) وما هي إلا محاولات ليس لي فيها سوى الجمع، ثم الترتيب، ثم التلخيص. وهي أدنى مراتب التأليف.

وقد جاء فكرة هذا العمل من المواقف التي مرت بها البلاد، وذلك عقب ثورة الخامس والعشرين من يناير لسنة ألفين وإحدى عشرة، فرأيت أن آخذ المواقف العصيبة في حياة النبي صلي الله عليه وسلم كي نستلهم منها الدروس والعبر في هذه الفترة الحرجة.

وأسأل الله أن يتقبل هذا العمل وغيره إنه سميع قريب مجيب الدعاء

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبـه/ أبو محمد
يوسف عبد الغنى كيوان
منتصف ليلة الأحد
٢٢ شوال ١٤٣٣ هـ- ٩ سبتمبر ٢٠١٢ م
شيخ مسجد السلاب (شربين)
محلة إنجاق - شربين - دقهلية
: ٠١٠٠٥٨٤٩٢٢٨
kiwan@yahoo.com-sefEmail: yous

* * *

الفصل الأول:
زهرات ... من الشمائل المحمدية

الموقف الأول

(١)

مولد رسول الإنسانية

الموقف الأول:
مولد رسول الإنسانية

وهل يستطيع محاول أن يوفي هذه الذكرى الكريمة حقها، وأن يؤدى لصاحبها واجبه، وهو ذلك النبي الأمي الذي أنقذ العالم كله من الشقوة والضلال، وأقال عثرة الكائنات مما تتعثر فيه من أوحال.

ذلك النبي الأمي الذي أرسله الله رحمة للعالمين، فتح به أعينا عميا، وقلوبا غلفا، وآذانا صماء، ذلك النبي الأمي الذي بعث، والناس فوضى جاهلون، لا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون. فجاءهم رسول منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزوره ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون. بأبي وأمي ونفسي وأهلي يا سيدي يا رسول الله. لقد طوقت أعناق العالمين. بما أنقذتهم من الضلال المبين. كان العرب وهم أحق الناس باتباع ملة إبراهيم في شر دين وأسوأ تفكير. يعبدون من دون الله ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئا، وإذا قيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون. أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير. وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين. وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم.

يالضلال الرأي، وسوأة التفكير، وانقلاب الوضع تقاليد مورثة. وعادات مأنوسة يجعلون لله ما يكرهونه، وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون.

أما فوضى المجتمع. أما تفكك الروابط. أما فقدان التواصل والتعاون. أما قطع الرحم وما أمر الله به أن يوصل. أما سفك الدماء وإغارة الأقوياء على الضعفاء بالطعن والضرب، للنهب والسلب، أما القسوة الوحشية والكبر والبغي والعنجهية. فحدث عن الإجرام والهرج، وحدث عن الظلمات والمظالم ولا حرج، وندع للكتاب الكريم الوصف الشامل والإيجاز الكامل إذ يقول الله سبحانه ممتنا بمحمد وقد أنقذهم به:{ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾} [آل عمران: ١٠٣]،{هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾} [الجمعة: ٢ - ٤].

أي وربي ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ويا محمد إن لك لأجرا غير ممنون، وإنك لعلى خلق عظيم، لقد سطعت على الوجود شمسك وتمشى في الكون إشراقك، فتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

لقد بهرت فلا تخفى على أحد، ونهضت بأمم لا يعرفون إلا تلك الحماقات والجهالات، فرفعتهم إلى السماء وجعلت منهم أمما كادوا يزلزلون الأرض بالحق، ويجاهدون الباطل في الأرض، ويجاهدون الضلال بالعدل،

وصف الله صفاتهم فأوجز:{كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُم} [آل عمران: ١١٠]؛ بالله العلي الحكيم، ما الذي قلب ذلك الوحش الكاسر والأسد الفاتك، والجمل الصائل والنمر الخالب، والكلب العقور، والسبع الجسور، فجعله الإنسان الفاضل - بل الملاك الطاهر -، والمصلح العالم يمشى على الأرض هونا وإذا خاطبه الجاهلون قال سلاما، وبعث تعاليم السماء، يبين البيضاء والحمراء، ما الذي جعل هذه العصابة التي كانت تخوف وتخوف، وتهدد وتهدد، وتصول في الظلماء، وتلغ في الدماء، علماء حلماء خاشعين قانتين، سادة بها ليلهم كأنبياء بنى إسرائيل، صابرين صادقين قانتين منفقين مستغفرين بالأسحار وحماة للفضيلة، حراسا لثغور الإسلام والسلام:{كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ} [الفتح: ٢٩]، قد عرفوا الله وعزفوا عن كل ما سواه، فكانوا مراهم لكل جراح الإنسانية وحمائم الأمن وحماة الحرية.

أولئك، تلامذة المدرسة المحمدية، وأولئك غرس محمد، فمن محمد؟

اللهم عطر ذكره، وجدد عهده وارحم أمته، لقد تداعت عليها الأمم، لما انصرفت عن هديه وهداه، فردها إلى الحق وأدركها بروح منك، رب العالمين (١).

* * *

(١) من ماضي الإسلام وحاضره.

الموقف الثاني

هذا هو النبي

الموقف الثانى:
هذا هو النبي
دعوة إبراهيم:

سئل رسول الله ﷺ فقال:

(أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام) رواه أحمد.

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:**(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع)** رواه مسلم.

عن عبد المطلب بن أبى وداعة قال: قال رسول الله ﷺ :**(من أنا؟)** قالوا: أنت رسول الله ﷺ. قال:**(أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وجعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتا، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا)**. رواه الترمذي وابن كثير.

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:**(يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة)**. رواه ابن سعد في الطبقات

*** المصطفي ﷺ :**

عن ابن عمار شداد أنه سمع واثلة بن الأسقع يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:**(إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم)** رواه مسلم.

وعن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال:

(إن الله عز وجل اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم) رواه مسلم.

*** نسب المصطفى ﷺ :**

خطب رسول الله ﷺ فقال:**(أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن فهر (١) ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان).**

(ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما فأخرجني من خير أبوين، فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح من لدن آدم، حتى انتهيت من أبى وأمي، فأنا خيركم نفسا، وخيركم أبا) رواه البيهقي وابن عساكر، والبداية والنهاية لابن كثير (٢).

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾} [التوبة: ١٢٨].

{لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾} [الأحزاب: ٢١].

{مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾} [الأحزاب: ٤٠].

* * *

(١) فهر هو قريش، ولا قريش إلا من فهر.

(٢) من مقال للأستاذ/ طه محمد كسبه.

الموقف الثالث

(٣)

الميلاد المحمدي
وتصحيح مسار الإنسانية

الموقف الثالث:

الميلاد المحمدي وتصحيح مسار الإنسانية

يمر بنا التاريخ لنتذكر يوم ميلاد نبي البشرية محمد ﷺ، إن المقصود بذكرى هذا اليوم ذكرى إسداء التوجيه، والنصح، والدلالة على الخير في حياة المسلم كما قال تعالى:{ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾} [الأحزاب: ٢١].

إنه يوم ميلاد خاتم النبيين، فحين قيل له: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال:(**إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم عن ذلك دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى لى، ورؤيا أمي التي رأت**) [١].

لقد بدا النور المحمدي حين حملته أمه آمنة، ووضعته، ورأت هذا النور يخرج منها، وينتشر حتى يضيء قصور بصري بالشام. إن يوم ميلاده ﷺ كان يوما مشهودا دلت الإرهاصات على عظم مولده، وحقيقة أمره، يوم ميلاده ﷺ هزم الله تعالى أصحاب الفيل، وردهم مدحورين ودافع عن البيت الحرام، كان دفاع الله تعالى أقوى من الجيوش الجرارة حين قدمت الطيور تحمل القنابل الفتاكة بالداء العضال فكان حدثا له من بعد نصرة الحق، واستقامة الحياة:{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾} [الفيل: ١ - ٥]. أي كورق الزرع إذا أكلته الدواب أو كالتبن.

(١) النبي الخاتم، د/ عبد الغفار هلال.

وقد قلت في ذلك:

فأبرهة الطاغوت إذا جاء جمعه ::: وأفياله قد آزرتها الجحافل
يريدون إخفاء الشعاع لشعلة ::: أضاءت عنان البيت منها القنادل

حمى بيته الرب القدير محصنا ورد عداة الله عنه أبابل يوم ميلاده ﷺ تصدع إيوان كسرى هذا القصر المشيد الذي كان يعج بالعصيان، والمجون، ويقوم عليه أحد جبابرة الأرض من الطغاة وبينما هو ومن حوله في غامر اللهو إذ بشرفات القصر تتهاوى كلها، وهي كثيرة قيل إنها بلغت أربع عشرة شرفة، كما يذكر كتاب السيرة، وقد أرسل كسرى في الآفاق يبحث عن سبب هذا الانهيار ثم علم - بعد البعثة - أنه النور المحمدي، ومن على شاكلة ذلك كثير في كل عصر وحين.

لقد كان ميلاده ﷺ سقوطا للشرك، وعبادة غير الله؛ فحين مولده ﷺ خمدت نار كسرى، وكانت مؤججة أكثر من ألف عام لم تنطفئ، وحولها عبادها من المجوس، وكان هذا الخمود للنيران إيذانا ببدء المعرفة لإلهية الحقة بالعودة إلى التوحيد وشرع الله الذي يعد امتدادا للرسالات الإلهية كما قال تعالى:{شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ} [الشورى: ١٣].

وقلت في ذلك:

ونار تلظى يعبد الفرس جمرها ::: تشب لها من ألف عام مراجل
وبينا عبيد النار يجثون حولها ::: إلههم المأفون بئس العبادل
أتى يوم ميلاد النبي فأخدت ::: له نار كسرى واستشاط العواهل
تصدع إيوان كسرى وقد هوت ::: به شرفات حطمتها الزلازل

لقد كانت لحظة الميلاد المحمدي لحظة إنقاذ للبشرية من متاهات الشرود والضلال. وتوجيهها إلى الصراط المستقيم. وكان مقدمه ﷺ قضاء على الجهل، والتخلف. وإقامة لبناء الإنسان بناء حضاريا سليما في هذا العالم على أساس من الفكر الحر.

والدعوة بالحسنى والحوار والتفاهم، لا بالسيف والاغتيال:{لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ} [البقرة: ٢٥٦]، وما أحوج العالم بأسره إلى هذه المبادئ.

وقد رسم طريق التواصل، والتراحم بين الناس فهو القائل ﷺ: **(إنما أنا رحمة مهداة).**

وقلت في ذلك [(١)] :

وهذا رسول الله طفلا ومولدا ::: أزاح ستار الجهل كيف التجاهل
أقام بناء للحياة قوامه ::: تحاور فكر لاسيوف غوائل
وقرب بين الناس كى يتعارفوا ::: على وحدة يزداد فيها التواصل

* * *

(١) النبي الخاتم، د/ عبد الغفار هلال.

الموقف الرابع

نسمات من أخلاقه

الموقف الرابع:
نسمات من أخلاقه

إن الله تعالى يمكن في الأرض الذين يتخذون التقوى والصلاح والخير طريقا للحياة وسلوكا. لهؤلاء الذين يلتزمون بمبادئ الأخلاق التي تقوم على مراعاة العدل والبر والخير وحسن السياسة في الأمور كما قال تعالى:{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾} [الأنبياء: ١٠٥].

وكما قال سبحانه:{ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾} [الحج: ٤١].

وكما قال عز حكمه:{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا} [النور: ٥٥].

أما الذين يبتغون فساد الأخلاق ويتخذون الشر طريقا لهم فيعتريهم الانقسام والذلة والخذلان وذلك يكون بفاسد العادات والتقاليد، وقد قال ابن مسعود: (خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال:(**هذا سبيل الله مستقيما**)، وخط عن يمينه وشماله ثم قال:(**هذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه**)، ثم قرأ قول الحق سبحانه وتعالى:{وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾} [الأنعام: ١٥٣].

ولذلك كان التمسك بشريعة الإسلام هو الخلق الأمثل الذي يقوم على إحسان السلوك وخير الطرق للهداية والعمل المثمر وأن يكون مرجع الأمور كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ،

قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا } [النساء: ٥٩].

فكل خلق قويم نافع مرجعه إلى القرآن الكريم وما كان يقوم به الرسول ﷺ من عمل وتوجيه وتنفيذ الأوامر والنواهي والأحكام التي جاء بها القرآن الكريم، وكان النبي ﷺ يقرب المثل في ذلك سواء كان ذلك فيما يلقيه من أقوال أو ما يقوم به من أفعال أو ما يقرره من أمور، وذلك مضمون ما يمكن تسميته بأخلاق الإسلام وهى تتمثل في القيام بتنفيذ ما أحل الله، والبعد عما حرم الله، وأداء شعائر الدين فيما شرعه الله من العبادات، وتنظيم الحياة الاجتماعية في جميع مظاهرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية على أساس ما جاء في القرآن وشرحته السنة النبوية المطهرة التي تمثل خلق رسول الله ﷺ في الالتزام والطاعة لكل ما جاء عن الله عز وجل وشرحه وفصله القرآن أو أجمله وجاءت السنة مبينة له وشارحة له، وهذا يشمل عمل كل ما يؤدى إلى الخير وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن وأن يكون الإنسان مستقيما كما أمره الله:{وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ} [الشورى: ١٥]. والقرآن الكريم إلى جانب ذلك يدعو إلى كل أنواع السلوك الحسن في معاملات الناس من الصدق والعفو والتواضع ومعالجة الأمور بحكمة وروية.

ونهى القرآن الكريم عن كل مايخل بالمروءة والشرف كالكذب والنفاق والغش والحسد والرياء، والعدوان على النفس والمال وتعاطى الخبائث وحذر من كل القبائح التي تضر بالمجتمع والناس كالخيانة والظلم والزور.

وأمر بأوامر الوفاء بالعقود والعهود وحسن استثمار المال والعلم وتقديم الخير للآخرين.

كما أمر بحفظ الأمن والنظام وطاعة أولى الأمر والتقاء الأمة حول ما يصلح كل أحوالها.

كما أمر بالاهتمام بالسلام وترك الفساد في الأرض، قال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [البقرة: ١٨٧].

وقال ﷺ:(**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**) (١).

لقد قال القرآن الكريم عن الرسول ﷺ:{ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩].

وقال سبحانه وتعالى:{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾} [التوبة: ١٢٨].

قال القاضي عياض: إن فضله ﷺ أن الله أعطاه اسمين من أسمائه الحسنى فقال:{بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨]، ولم يعامل قومه في الدعوة إلى الله معاملة جافية.

سألت السيدة عائشة النبي ﷺ قالت: يا رسول الله: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟

قال صلي الله عليه وسلم :(**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة.. إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أفق إلا وأنا بقرن الثعالب - قرن المنازل الآن - فرفعت رأسي، فإذا**

(١) قال النووي: هذا حديث حسن.

سحابة قد أظلتني فنظرت، فإذا جبريل ـ عليه السلام ـ فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا به عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال. وسلم عليَّ ثم قال: يا محمد، إن الله تعالى قد سمع قول قومك، وأنا ملك الجبال قد بعثني إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ـ تسمية لجبلين في مكة) فقال ﷺ:**(بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئا)** (١).

وعن أنس قال: (كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت، فاستقبلهم رسول الله ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت وهو يقول:**(لن تراعوا، لن تراعوا)** وهو على فرس لأبى طلحة (سهل بن زيد الأنصاري زوج أم أنس) عُرْى ما عليه سرْج، في عنقه سيف، فقال:**(لقد وجدته بحرا أو إنه لبحر)** (أي واسع الجري مثل البحر).

وقال أبو ذر لما بلغه مبعث النبي لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله، فرجع فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق.

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - كان النبي ﷺ أجود الناس وأجود ما يكون في رمضان.

وعن عبد الله بن عمرو قال: لم يكن رسول الله فاحشا ولا متفحشا، وإنه كان يقول:**(إن خياركم أحاسنكم أخلاقا)**.

وعن أنس رضي الله عنه قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لى: أفٍّ، ولا لِمَ صنعت؟ ولا ألا صنعت؟ (بمعنى هلا صنعت؟).

وفي رواية: ما قال لشيء صنعته هذا كذا؟ ولا لشيء لم أصنعه:

---

(١) رواه الشيخان.

لم تصنع هذا كذا؟

وعن الأسود بن يزيد قال: سألت عائشة: ما كان النبي يصنع في أهله؟ قالت: كان في مهنة أهله - بكسر الميم وفتحها - فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن هذه الآية التي في القرآن:{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾} [الأحزاب: ٤٥]، قال: في التوراة:{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾} [الأحزاب: ٤٥]،**(حرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا)** (١).

وكل ما صدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير فهو السنة.

وكل ما كان مقصودا به التشريع والاقتداء به ﷺ مما ثبتت صحته هو مصدر للتشريع فكل شيء يحتاج إليه المسلمون في أمر دينهم ودنياهم مما يصلح حياتهم شرع لهم.

وطاعة الرسول من طاعة الله، قال تعالى:{ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾} [آل عمران: ٣٢]،{مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا } [النساء: ٨٠]، {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا } [الحشر: ٧].

وسننه ﷺ بيان للقرآن:{ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } [النحل: ٤٤].

---

(١) رواه البخاري.

ولما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال له:**(بم تُقضى إذا عرض لك قضاء؟)** فقال: بكتاب الله، قال:**(فإن لم تجد؟)** قال: بسنة رسول الله، قال:**(فإن لم تجد؟)** قال: أجتهد رأيي و لا آلو، فقال ﷺ: **(الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي الله ورسوله).**

والسنة تأتي مقررة ومؤكدة لما جاء في القرآن الكريم كالأمر بالصلاة والزكاة وسائر العبادات.

والسنة تأتى مفسرة ومفصلة لما أتى مجملا في القرآن أو واضعة بعض القيود والشروط كما جاءت السنة مبينة لأوقات الصلاة وكيفيتها وعدد ركعاتها وما يقرأ فيها... إلخ.

والسنة تأتى بأحكام جديدة فيما لم يذكره القرآن مثل التحريم من الرضاع:**(يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)** وكذلك حديث الواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة إلخ... وهذا أشار إليه الإمام الشافعى في رسالته - في الأصول - [١].

فأين نحن من هذه الأخلاق الآن؟!

* * *

(١) أيام من حياة محمد.

الموقف الخامس

(٥)

الصبر على الإيذاء والاضطهاد وألوانه

الموقف الخامس:
الصبر على الإيذاء والاضطهاد وألوانه

خلال هذه الحقبة من تاريخ الدعوة، وقعت حوادث جسام، ومع ذلك استمر الرسول ﷺ يدعو جهارا غير هياب، وكان القرآن ينزل عليه إرسالا فيقرئه أصحابه، وكان يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان المكيون يقابلون دعوته بالسفه والإنكار البالغ، ولما وجدت قريش أن الدعوة تزداد انتشارا على مر الأيام، وأن أساليب السخرية والتحقير لم تؤد إلى نتيجة، فبدأت حملة شرسة من الإيذاء والاعتداء على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه رضوان الله عليهم (١).

١- إيذاء النبي ﷺ :

لقد وقفت قريش من النبي ﷺ موقفا معاديا كان يزداد حدة وشراسة مع مرور الأيام، وحاولت بشتى الوسائل وكافة السبل، أن تصده عن دعوته، وأن توقف انتشارها، فلجأت في بادئ الأمر إلى أسلوب التبكيت والاستهزاء والتكذيب والتحقير والتضحيك والاتهامات والافتراءات الباطلة، بقصد تخذيله وتوهين قواه، فرموه بتهم هازلة وشتائم سفيهة، فمرة يصفونه بالجنون، قال تعالى:{ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾} [الحجر: ٦].

وقال عز شأنه أيضا:{وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾} [القلم: ٥١].

وهذا مع أنه سيد ولد آدم، وقد رد الله عليهم فقال سبحانه:{نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾} [القلم: ١ - ٢].

* * *

(١) محاضرات في السيرة النبوية.

صور الإيذاء ووسائله

في حياته ﷺ قد وجد أنواعا شتى من الإيذاء والإهانة والشتم والسب منها [١] :

الإيذاء البدني: ففي العهد المكي كان النبي ﷺ قد وجد من قومه إيذاء بدنيا الأمر الذي جعله في مصاف أولى العزم من الرسل.

- فقد خنقه أحد المشركين بردائه وهو يصلى حتى جاء أبو بكر فدفع الرجل وقال: (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله).
- وقد وضع أحدهم على ظهره سلا جزور (أمعاء ذبيحة) فما تحرك في سجوده حتى أتت ابنته فاطمة فطرحت عنه القاذورات.
- ويوضع عليه التراب وهو يصلي في الكعبة. وجاءت فاطمة فأزالت التراب وهى تبكى. والرسول يقول:**(لا تبكى يا فاطمة فإن الله مانعٌ أباك)**.
- ويذهب إلى الطائف علّه يجد متنفسا لدعوته لكنه يجد خلاف ما توقع. فأغرى أهل الطائف سفهاءهم وأطفالهم فآذوه حتى أدميت قدمه الشريفة.
- ويحاولون قتله عن طريق رصد بعض شباب مكة الذين ترصدوا له حول داره ليضربوه ضربة رجل واحد لكن الله نجاه.

أما في العهد المدني فإن لليهود والمنافقين باعا طويلا حيث تعود اليهود على إيذاء الأنبياء والاستهزاء بهم، ولم يسلم من آذاهم حتى موسى عليه السلام. الذي أنقذهم الله على يديه. حيث أطلق اليهود بأنه الأدرة (انتفاخ الخصية).

---

(١) الرسول الأعظم صلي الله عليه وسلم .

ولهذا حذر الله أمة محمد أن تفعل مع نبيها ما فعله اليهود مع موسى فقال:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾} [الأحزاب: ٦٩].

ورسول الله محمد ﷺ ليس بدعا من الرسل في هذا الشأن، لهذا أطلق اليهود والمنافقون عليه الشائعات التي تمس شخصه الكريم مثل قولهم:{هُوَ أُذُنٌۚ} [التوبة: ٦١]، وقولهم:{رَٰعِنَا} [البقرة: ١٠٤]، من الرعونة فيرد الله عليهم ذلك.

ومنها الإشاعات التي تمس شرفه مثل ما أشاعوه في حادثة الإفك فبرأ الله عائشة من فوق سبع سماوات.

ومنها بعض التشريعات التي تمس أحكامه وتشريعاته مثل لمزهم رسول الله في أمر الصدقة كما قال:{ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ} [التوبة: ٥٨].

وممن سب رسول الله وآذاه ابن الزبعرى. فقد كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ بلسانه فإنه كان من أشعر الناس وكان يهاجي شعراء الإسلام مثل حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وقد أمر النبي بقتله يوم الفتح.

ومن هؤلاء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. فإن قصته في هجائه النبي ﷺ وفي إعراض النبي عنه لما جاء مسلما مشهورة ومستفيضة. حيث يذكر أن أبا سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبى أمية التمسا الدخول على رسول الله فكلمته أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك وصهرك، فقال:**(لا حاجة لى بهما. أما ابن عمى فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لى بمكة ما قال).**

فلما خرج إليهما الخبر ومع أبى سفيان بن الحارث ابن له فقال: والله ليأذنن لي رسول الله أو لآخذن بيد ابن هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشا أو جوعا، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما فدخلا عليه، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى منه.

ولما مزق كسرى كتاب رسول الله ﷺ واستهزأ به قتله الله بعد قليل، وفرق ملكه كل ممزق، وهذا - والله أعلم - تحقيق قوله تعالى:{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾} [الكوثر: ٣].

* والإيذاء البدني لرسول الله قد انقطع بانقطاع حياته ﷺ على الأرض. ولكن الإيذاء المعنوي من تكذيب وتشويه لصورته هو السلاح الباقي مع الأعداء إلى يومنا هذا.

فالهدف والغاية واحد منذ عصر النبوة وحتى يومنا هذا، وهو محاولة تشويه صورته والنيل من قدره وصرف الناس عن دينه وشريعته، واحتقار أتباعه والمؤمنين به، وإن اختلفت الأساليب والوسائل والصور، فلئن كان الشعر وسيلة لهجائه فإن الرواية الأدبية حلت محلها من قبل أعدائه.

ولئن كان الغناء وسيلة للاستهزاء به فقد صارت الصحف والمجلات طريقة أخرى.

وإطلاق الشائعات على شخص النبي والسخرية منه دخلت مجال الإعلام الحديث أيضا.

ومما يؤسف له أن التكنولوجيا الحديثة والتقنيات العالمية، والتقدم العلمي بدل أن يستخدمها الإنسان وسيلة للحوار والتفاهم مع الآخر للوصول إلى قدر من المعايشة السلمية صار الآن في الغالب الأعم وسيلة لزرع الكراهية والبغضاء بين الأمم والشعوب.

فمن يتابع وسائل الإعلام وخاصة الإنترنت يجد ما يهوله من عداء سافل وسافر تجاه الرسول محمد ﷺ.

* وكعب بن الأشرف كان عربيا من بنى طيئ، وكانت أمه من بنى النضير، وكان قد وادع النبي ﷺ مع من وادعه من يهود المدينة. ولكن حين انتصر الرسول ﷺ في بدر حزن حزنا شديدا، وانطلق إلى مكة وراح ينظم المراثي في قتلى قريش، ويحرض قريشا على الأخذ بالثأر، وأعلن في مكة أن دين المشركين أهدى من دين المسلمين.

ثم عاد إلى المدينة وأخذ ينظم الشعر في هجاء الرسول ويشهر بنساء المسلمين حتى ضاق به النبي ذرعا فقال:**(من لى بكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله)**. فتصدى له محمد بن مسلمة، وخرج في نفر من الصحابة وقتلوا كعب بن الأشرف.

* وابن خطل الذي ارتد بعد إسلامه وكانت عنده جاريتان تغنيان الشعر الذي كان ينظمه هجاء في الرسول، وتحولت دار ابن خطل إلى ملهى يجتمع فيه الكفار ليستمعوا إلى غناء الجاريتين.

فلما فتح الله على رسوله ودخل مكة لاذ ابن خطل والجاريتان بالبيت الحرام، وكان قد صدر أمر من النبي ﷺ أن اقتلوا ابن خطل ولو كان متعلقا بأستار الكعبة، لأن ابن خطل كان يرضى المشركين في مكة بسب رسول الله ﷺ، وكان هجومه بالغ الخسة والدناءة، بل هوى إلى الدرك الأسفل من الوقاحة والصغار، ولكن لابد من صدور أمر بإعدامه لأنه قد تعدى حتى شرف المخاصمة.

وممن هزأ وسخر بالرسول وغاظه انتصار الرسول في بدر، رجل يسمى (أبو عفك)، وكان قد بلغ عمره مائة وعشرين، وكان يحرض الناس على عدم الدخول في الإسلام، ثم أفرغ غيظه وحقده في قصيدة طويلة هجا فيها النبي ﷺ هجاء مقذعا، وكانت نهايته مثل

كعب بن الأشرف.

مما تقدم نعلم أن رسول الله ﷺ قد واجه في حياته كثيرا من المصاعب ومنها الشتائم والسباب والاستهزاء، وما كان رسول الله ﷺ يدافع عن نفسه قط، وذلك لأن مهمته أكبر من أن يقف عند شتم شأنه في ذلك شأن سائر الرسل والأنبياء، ولهذا قال الله له:{ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾} [فصلت: ٤٣].

وقد تولى الحق سبحانه الدفاع عن رسوله، ثم بعد ذلك كان دور الصحابة الكرام.

فكم رأينا عمر بن الخطاب يحاول النيل ممن استهزأ برسول الله ﷺ أو حاول إيذاءه، وخالد بن الوليد كم مرة يجرد سيفه لمجرد أن أعرابيا قال له: (اعدل يا محمد، فوالله ما أراك عدلت).

والأعمى الذي قتل أم ولده لأنها وقعت في رسول الله ﷺ وشتمته فنهاها الرجل أكثر من مرة فلم ترجع فقتلها بمعول كان بيده.

نخلص من ذلك: أن كل من شنأه وأبغضه وعاداه فإن الله يقطع دابره ويمحق عينه وأثره.

وإذا كان (لحوم العلماء مسمومة) فكيف بلحوم الأنبياء وعلى رأسهم أشرف الخلق محمد ﷺ.

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يقول في حديثه القدسي:**(من عاد لي وليا فقد آذنته بالحرب)**.

فكيف بمن عادى نبيا، ثم كيف بمن عادى سيد الأنبياء وأستاذ الأولياء والأتقياء.

* * *

ضريبة المهام العظام

وكان من وسائل الدفاع والحفظ الذي تكفل المولى به لرسوله ﷺ أن ذكره بأنه ليس بدعا من الأنبياء والرسل وأنهم لاقوا كثيرا من العنت والتكذيب فصبروا على ذلك وعليك أيها النبي وأنت إمامهم في الرسالة أن تكون كذلك في الصبر والتحمل قال تعالى:{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾} [الأنعام: ٣٤ - ٣٥].

وقال مبينا عاقبة الذين استهزؤوا برسل الله وأن الله كان لهم بالمرصاد:{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾} [الأنعام: ١٠].

وأن من سنن الله مع أنبيائه أنه سبحانه وتعالى أنه يملي لهم ولا يهملهم ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، وسنته باقية إلى يوم القيامة، ولا مبدل لكلمات الله في ذلك كما قال تعالى:{ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾} [الرعد: ٣٢].

فما من أمة أرسل الله إليها رسول إلا استهزؤوا به، وسخروا منه.

إن عمل كل ما من شأنه وقف هذه المساخر إنما هو واجب ديني ووطني وأخلاقي. بدءا بإنكار المنكر قلبا وقولا وعملا لكن كل ذلك شريطة أن تكون هذه الأعمال وفقا المنهج النبوي كما لو كان رسول الله ﷺ موجودا بيننا الآن.

فإن أعلن استنكاري فهذا مشروع، أن أكره من يحاول الإساءة لرسول الله فهذا واجب، أن أقاطع المستهزئ برسول الله فهذا واجب،

أن أقاطعه سياسيا فهذا مشروع، لكن أن أحرق السيارات، وأن أدمر البنايات، وأن أزهق الأرواح فهذا ما لا يرضى عنه رسول الله ﷺ.

على الحكومات وولاة الأمور في دول الإسلام أن يقفوا صفا واحدا لوقف هذه الهجمات المنظمة بعدما تبين أن الأمر لم يقف عند صحيفة بل إن الأمر قد بات وكأنه قد خطط له وأن النخبة الحاكمة إذا لم تتحرك لوقف هذه البذاءات ضد رسولهم، فإن البون سيتسع بينهم وبين شعوبهم التي أظهرت الأحداث أن رسول الله أغلى عندهم من أنفسهم التي بين جنوبهم.

على النخبة المثقفة في العالم الإسلامي والمفكرين والعلماء واجب ديني إزاء السيد العظيم محمد ﷺ، وذلك بتذكير الغرب أن الحوار الحضاري الذي يدعى الغرب مواصلته مع الشرق الإسلامي أكذوبة طالما لم يتعد حدود الكلام النظري. وطالما أن أصحاب القرار في الغرب يسيرون نحو أسلمة الإرهاب ثم الصدام المسلح باحتلال الدول الإسلامية بلدا بعد الآخر.

يجب أن يكون جهدنا ضعيفا ونفسنا قصيرًا في التعامل مع هذه القضية بالذات فقد عرف عن المسلمين أنهم ينفعلون مع الحدث أولا، ثم تخبو الجذوة وينعدم الحماس ولا يخرجون بنتيجة اللهم إلا سخرية الآخرين حتى قالوا عنهم: إن العرب والمسلمين ظاهرة صوتية.

ومن هنا وجب على المسلمين ألا تهدأ المظاهرات السلمية، والاحتجاجات المنظمة، والمقاطعات الاقتصادية والسياسية حتى يكف هؤلاء الغربيون عن سفالاتهم، وحتى نأخذ حقنا ونسترد كرامتنا، ونستعيد هيبتنا، ويعلم الغرب أن محمدا ﷺ قد خلف رجالا يفدونه بأموالهم وأنفسهم.

إن رجال المال والإعلام في الدول الإسلامية يجب أن يكونوا على مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقهم، وذلك بأن يقوموا بدور دعوى لايقل خطورة عن دور الأئمة والدعاة، وذلك بإنشاء قنوات متخصصة بكل اللغات الغربية تقوم بدور لا أقول الدفاع عن الإسلام ونبيه ﷺ لأن النبي لا يحتاج دفاعًا من أحد إذ أنه لم يكن يوما في قفص اتهام - وحاشاه - ولكن تكون مهمة هذه القنوات إبراز الصورة الحقيقية لرسول الله ﷺ.

وهذه القنوات سوف تصحح كثيرا من هذه الأغاليط عن الإسلام ونبيه ﷺ خاصة أمام عامة الشعوب الغربية التي كانت وما زالت تأخذ معلوماتها عن الإسلام وأهله ونبيه من وسائل الإعلام الغربية التي تسيطر عليها الجماعات الصهيونية والتي نعرف جميعا مدى عداوتها للإسلام والمسلمين.

لا ننكر حقيقة هامة وهى أن بعضنا من المسلمين قد ساعدوا على تشويه صورة الرسول الأعظم من الغربيين أنفسهم بجهلهم تارة وسوء سلوكهم تارة أخرى.

بل إن مما يؤسف له أن عددا ممن يحسبون على الدعوة قد أعطوا الغرب فرصة ما كانوا يحلمون بها. مثل جمود الفكر، وعدم الوعي بمقاصد الشريعة، والانغلاق التام، والانفصال عن الواقع. وقد أحسن الغرب وخاصة الجماعات الصهيونية المنظمة استغلال هذه النماذج لمساعدتهم في مهمتهم في تشويه الإسلام ونبيه.

على الحكومات الإسلامية في المحافل الدولية أن حرية التعبير في الغرب عرجاء شوهاء. ذلك أن كثيرا من دول الغرب لا يجرؤ أحد أن يمس أي قضية تتصل باليهود وإلا دخل تحت طائلة القوانين المتعلقة بمعاداة السامية والتي تؤدى بصاحبها إلى الاعتقال والحبس

مهما كانت الحجج والبراهين التي يستند إليها.

فعلى الحكومات الإسلامية أن تصرخ بأننا ساميون أيضا، ويجب أن تحترم مقدساتنا وقضايانا أيضا وإلا!!!

علينا نحن المسلمين أن نرتب البيت الإسلامي من الداخل، وأن نحاول قدر إمكاننا الاكتفاء الذاتي، ولا نمد أيدينا إلى الغير. لأن من لا يملك قوته لا يملك قراره. وأظن أنه عار علينا أن يكون لدينا هذا الرصيد الهائل من البشر، والموارد، والأرض، وفوق ذلك القيم ثم بعد ذلك نذهب فنتسول من الغرب ونطلب منهم أن يحترموا مقدساتنا!!!

لابد من مواقف عملية تؤكد صدق الاعتذار. ولا يكون الاعتذار مجرد كلمة جوفاء أملتها عليهم الظروف العالمية. والمقاطعة الاقتصادية، والوقفات السياسية بل لابد من خطوات عملية حتى لا يتكرر المشهد ونعود إلى ما كنا عليه وهكذا بل لابد من:

١- النظر في مناهج التعليم الغربية التي تقوم بدور التشويه المتعمد للإسلام والمسلمين ونبيهم.

٢- إعادة النظر في القوانين سيئة السمعة التي سنها الغرب ضد المسلمين والتي تحاول الربط بين الإرهاب والإسلام، والتي تصل لدرجة أسلمة الإرهاب أو أرهبة الإسلام.

٣- السماح بمساحة واسعة من الإعلام لإظهار وجه الإسلام الحقيقي والتي يقوم علماء الإسلام بشرحها وبيانها.

٤- عدم تهميش دور المسلمين في المجتمعات الغربية، بل يجب أن يكون لهم دور في صناعة القرارات يتوازى مع دورهم في نهضة المجتمع الأوروبي.

فالعقول الإسلامية المهاجرة من العلماء والأطباء والمهندسين ورجال الأعمال كان ولازال لهم دور فاعل في الحياة الغربية لا ينكره إلا مغرض أو جاهل.

٥- تطبيق المواثيق الدولية التي تنص على عدم المساس بالمقدسات الدينية، وخاصة المادة السابعة في ميثاق حقوق الإنسان.

٦- سن القوانين التي تضبط الحرية الفكرية وخاصة فيما يتعلق بالصحافة التي هي أوسع انتشارا، ووضع عقوبات رادعة لمن يحاول النيل من قدر المقدسات إسلامية أو مسيحية أو يهودية.

ومن المعلوم أن المسلم في كل مكان أول من يرفض بشدة أن تهان مقدسات الآخرين خاصة وأننا أولى بموسى وعيسى من الآخرين.

* * *

الفوائد والآثار الإيمانية على تعود المسلمين من ذلك:

١- هذا الباب تقرير وتأكيد لقول الله تعالى:{أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾} [العنكبوت: ٢].

ولقوله تعالى:{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾} [البقرة: ٢١٤].

ولقوله تعالى:{لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾} [آل عمران: ١٨٦].

ومن فوائد هذا الإبتلاء تمحيص المؤمنين ومحق الكافرين:{لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال: ٤٢].

وحتى يتخذ الله أولياء وشهداء، نسأل الله تعالى شهادة في سبيله مقبلين غير مدبرين.

قال ابن القيم - رحمه الله -: والمقصود أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لابد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكرامته ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له ويخلصها بكير الامتحان كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها من الجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار وإلا ففي كير جهنم، فإذا هذب العبد ونقى أُذن له في دخوله الجنة.

٢- قال الجزائري - رحمه الله - في النتائج والعبر: بيان صدق وعد الله تعالى لرسوله ﷺ في قوله تعالى:{إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾} [الحجر: ٩٥].

فقد كفاه إياهم بأن أهلكهم كلهم والرسول ﷺ يشاهد هلاكهم في فترة وجيزة وزمن قليل.

٣ - قال الدكتور / محمد البوطي: كان من الممكن ألا يأمر الله رسوله بإنذار عشيرته وذوى قرباه خاصة اكتفاء بعموم أمره الآخر وهو قوله:{فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ} [الحجر: ٩٤]، إذ يدخل أفراد عشيرته وذوو قرباه في عموم الذين سيصدع أمامهم بالدعوة والإنذار، فما الحكمة في خصوصية الأمر بإنذار العشيرة؟

فأدنى درجة في المسؤولية هي مسئولية الشخص عن نفسه، ومن أجل إعطاء هذه الدرجة حقها استمرت فترة ابتداء الوحي تلك المدة الطويلة التي رأيناها، أي ريثما يطمئن محمد ﷺ إلى أنه نبي مرسل، وأن ما ينزل عليه إنما هو وحي من الله عز وجل فيؤمن هو بنفسه أولا ويوطن ذاته لقبول كل ما سيتلقاه من مبادئ ونظم وأحكام.

أما الدرجة التي تليها، فهي مسؤولية المسلم عن أهله ومن يلوذون به من ذوى قرباه، وتوجيها إلى القيام بحق هذه المسؤولية خصص الله الأهل والأقارب بضرورة الإنذار والتبليغ بعد أن أمر بعموم التبليغ والجهر به.

وأما الدرجة الثالثة: فهي مسؤولية العالم عن حيه أو بلدته ومسؤولية الحاكم عن دولته وقومه وكل منهما ينوبان في ذلك مناب رسول الله ﷺ.

وقال الأستاذ منير الغضبان: فالشيء الطبيعي أن تكون الدعوة في المرحلة الأولى في صفوف الأقربين، وخاصة عندما تأخذ طابع المواجهة المعلنة، لأن هذه المواجهة تعرض الداعية للخطر فلا بد له من حماية، وعشيرة الداعية هم أكثر الناس استعدادا للحماية، فلقد كان أول الخلق إسلاما بعد رسول الله ﷺ زوجه خديجة رضى الله عنها، ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه على بن أبى طالب الذي كان مقيما عنده.

٤ - يقول الشيخ محمد الغزالي: إن محمدا ﷺ لم يجمع أصحابه على مغنم عاجل أو آجل، إنه أزاح الغشاوة عن الأعين فأبصرت الحق الذي حجبت عنه دهرا، ومسح الران عن القلوب فعرفت اليقين الذي فطرت عليه، وحرمتها الجاهلية منه، إنه وصل البشر بربهم،

فربطهم بنسبهم العريق وسببهم الوثيق، وكانوا - قبلا - حيارى محسورين، إنه وازن بين الخلود والفناء، فآثروا الدار الآخرة على الدار الزائلة، وخيرهم بين أصنام حقيرة وإله عظيم فازدروا الأوثان المنحوتة، وتوجهوا للذى فطر السماوات والأرض.

حسب محمد ﷺ أنه قدم الخير هذا الخير الجزيل، وحسب أصحابه أن ساقته العناية لهم، فإذا أوذوا فليحتسبوا، وإذا حاربهم عبيد الرجس من الأوثان فليلزموا ما عرفوا، والحرب قائمة بين الكفر والإيمان سينجلي غبارها يوما ما ثم تنكشف عن شهداء وهلكى، وعن مؤمنين قائمين بأمر الله ومشركين مدحورين بإذن الله [(١)].

{وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾} [هود: ١٢١، ١٢٢].

فما هو الإيذاء والاضطهاد الذي أصابنا؟ ولعل صبرنا لدين الله أم هي كلمات تقال وما أسهل الكلام؟!

* * *

(١) وقفات تربوية مع السيرة النبوية.

الموقف السادس

(٦)

كيف نداوى الأحزان

الموقف السادس:
كيف نداوى الأحزان!

تقابل الفقير المحروم متأففا متضجرا، يحمل أكداسا من الغم والشجن، ونسمع إليه يفيض في وصف ما ابتلى به من المحن والنوائب، فتأسى لمصابه، وتنفطر لبلواه، وتقابل ثريا مترفا يتقلب في أعطاف النعيم، فتعتقد أنه ناعم البال، هادئ النفس، ولكنك تنصت إليه فتجده ينوء بأعباء ثقيلة من الهم، فله من وساوسه المتلاحقة غيوم داكنة تخيم على نفسه، فتطرد عنه الصفاء والدعة، وإذ ذاك تعلم أن الحزن ديمقراطى النزعة، يدب إلى الأكواخ المتضائلة، كما يتسلق إلى القصور الشماء دون حذر أو مبالاة.

ولكل إنسان في الحياة رغائب ينشدها، وآمال يكدح في سبيل تحقيقها، فالفقير والغنى معا يحلمان بحياة غير الحياة التي يواجهانها أمام الناس، وكثيرا ما يسرفان في الأمل، ويجهدان في السعي، وقد يكون الأمل عزيزا بعيد المنال، فمهما أحثا السير وراءه، فلن يصلا إليه، وهنا تكون الحسرة اللاذعة، والهم الناصب، والحزن المقيم.

وكأن القدر - والحال كذلك - قد جعل من هموم الأغنياء عزاء للفقراء، فإذا نظر البائس المكدود إلى الغنى المترف، فوجده يقاسمه الكدر والضيق، خفف من حزنه، وجفف من دموعه، وهان عليه ما يكابد؛ وللحزن دواع مختلفة، بل أنها تتناقض في بعض الأحيان فقد يفرح زيد لما يبكى له عمرو؛ ومن هنا اشترك الغنى والفقير في اللوعة رغم اختلاف الآلام والآمال.

وأنت تشاهد المحزونين فتأسى لوجوههم الشاحبة، ورؤوسهم المطرقة، ونفوسهم الكسيرة، وكل إنسان في الحياة قد طاف به وقت كريه أذاقه مرارة اللوعة والأسف، فاكتأب خاطره، ومر الطعام

الهنئ في حلقه، وغامت الدنيا في وجهه، ولو امتد به الحال على ذلك لضاقت به الحياة، ولكن الله لطيف بعباده، يجعل من الضيق سعة، ويعقب الظلام الدامس بالصباح الوضيء.

وللحزن زوايا مختلفة، ولن تعدم فيها زاوية حيوية تدفع إلى العمل المنتج، والسعي الدؤوب، فكم من نفوس صهرها الحزن والألم فذهبت تتلمس النجاة والخلاص، وحشدت مواهبها للنضال والصيال حتى تفتقت عن عبقريات ملهمة، وإذا الألم يكشف عن نبوغ مقنع، وذكاء تكمن جذواته تحت الرماد، واقرأ معي تراجم العباقرة في مختلف الأجيال فستجد من الألم والحرمان والاضطهاد أسبابا قوية، مهدت لهؤلاء النوابغ سبيل التألق والسطوع، ولو خلت حياتهم مما يكدر ويؤلم، ما سطع عليهم الإلهام في بيان يردد، أو اختراع يفيد**!!.**

ولكن هل استفاد جميع المحزونين من أشجانهم الثائرة؟ فقطفوا الثمرة المشتهاة، وأبرزوا ما استتر إليهم من مكنون المواهب، والكفاءات؟ لو كان الأمر كذلك لأصبحت الأحزان أماني غالية، يحرص على تحقيقها الناس، ولكن السواد الأعظم من المحزونين قد ناؤوا تحت أثقالهم المرهقة، وهم في حاجة ماسة إلى بلسم ناجع يبرئ أدواءهم الناغرة، ولن يكون ذلك إلا بفهم الحياة، واستكناه حقائقها الخافية، والنظرة إليها نظرة واقعية، فقد طبع في أذهان كثير من الناس أن صفاء الدنيا وخلوصها من الشوائب أصل ثابت تستقيم عليه الأمور، وأن ما يطرأ من الكوارث والغير شذوذ يخالف القاعدة الأصلية، فحق عليهم أن يجزعوا لغير ما يتوقعون، ولا أدرى من أين أتى لهم ذلك، وهم يلمسون النوائب تتزاحم في كل زمان ومكان، حتى ليصح أن يكون الكدر طبيعة لازمة للحياة ومتى استقام لأذهاننا هذا الفهم العملي الصحيح، فلنوطن نفوسنا على قبول المكاره والأحداث، فلا تفزع لخطب ملم أو خطر يكرث، ولسنا بذلك ندعو

إلى الاستكانة والخضوع، أمام الكوارث الحازبة، بل نعتبر وجودها أمرا طبيعيا فقط، فعلى الإنسان أن يحتاط جهده لنفسه فيسلك السبيل السوي، ويأخذ الحذر من المكروه، فإذا دهمه الخطب بعد الحيطة، تقبله راضيا قانعا، وعلم أنه سنة لازمة من سنن الحياة ذات الخير والشر، والإعسار والإيسار.

ومكلف الأيام ضد طباعها ::: متطلب في الماء جذوة نار

وقد يكون من المفيد أن نضرب مثلا واضحا، يرسل بعض الأضواء الكاشفة، فنقول: أنت في الحياة معرض للأمراض الجسمية القاتلة، فعليك أولا أنت تعتنى بالقواعد الصحية عناية تامة، وتجتهد في تطبيقها واعيا مستنيرا، كما لا تنس في الوقت نفسه أن المرض الجسمي سنة من سنن الحياة فأنت معرض له مهما توقيت، بل ربما جاءك من باب خاف لا تفطن إليه، ومن الذي يعصم نفسه من الاصطدام بسيارة أو الوقوع في حفرة مهما أخذ الحذر والانتباه، فإذا أفرغ العاقل جهده في التوقي والحيطة، ودهمه المرض بعد ذلك من إحدى طرقه فلا يليق به أن يجزع لأمر طبيعي يتوقعه الجميع، بل عليه أن يكافحه بما يستأصله من أفانين الدواء فإذا قدر الله الشفاء فقد بلغ ما يريد، وإن كانت الآخرة فهذه سنة الحياة، فلا يجوز لك أن تسترسل في الهلع المرعب، فتسقط صريع الأسى في حياة يلاحقها الفناء.

وليس المرض أو الموت كل شيء من مصائب الحياة، فالتاجر الذي يفاجئه السوق بما يبدد أمواله بعد أن أخذ الأهبة؛ وصاحب المصنع الذي تلتهم النار أدواته لأمر خارج عن إرادته، والتلميذ الذي يكبو في مادة درسها واستوعبها ثم خانته الذاكرة، هؤلاء وأمثالهم يلغون عقولهم إذا استسلموا لليأس والقنوط، بل عليهم أن يواصلوا السير من جديد؛ فقد بذلوا أقصى ما يدخرون من اليقظة والكدح ثم

جاءت الريح أخيرا بما لا تشتهى السفن، وحسبهم أن ترتاح ضمائرهم فلا توخزهم بتأنيب مرير.

هذا الفهم البصير قادر على أن ينقذ المحزونين من ظلماتهم الدامسة، فمتى توقع الإنسان الخير والشر معا، فقد استعد لقبولهما، فلا يخرج عن الاعتدال في هم أو سرور، ثم أن مجال الأسوة فسيح للبائسين، فالمهموم لا يقف وحده في ميدان غائم عبوس، بل يجد حشدا زاخرا من زملائه الملتاعين، ولو سألت كل إنسان عن مآسيه، لتعذر عليك أن تجد القانع السعيد، ولئن وجدته وتبطنت داخل نفسه، ثم وازنتها بميزان الناس فستطلع على دفائن مستورة، خفيت عنه لحسن حظه، فبات بنصيب من السعادة والهدوء، بينما غرق الجميع في طوفان رهيب.

أجل، إن ميدان الأسوة فسيح مديد، وما من الناس إلا رزئ في نفسه أو ماله أو ذويه، وقد رويت عن الإسكندر قصة إن فاتها صدق الواقع فلن يفوتها مغزى الأسطورة، وإيحاؤها السحري، فقد ذكروا أن الفاتح المقدوني أوصى والدته أن تدعو الناس بعد وفاته ليوم يجتمعون فيه على الطعام والشراب والسرور، ليكون مأتم الإسكندر بهيجا مرحا على غير عادة الناس، على ألا يوافيها للعزاء أحد أصابته مصيبة، فيكدر الصفو، ويطفئ الأنس، فلما هلك النجل، ونفذت الأم الوصية لم تجد أحد أمام ساحتها، فسألت مندهشة: ما بال الناس تخلفوا عنا مع ما قدمنا؟ فقيل لها: إنك أمرت ألا يوافيك أحد أصابته مصيبة، وكل الناس مصابون،!! فعرفت أن الإسكندر قد أحسن تعزيتها بما أوصى به، لينحسر عن عينها الغطاء!!.

ولن يغفل الملتاع ما أعده الله للصابرين من جزاء، فقد بوأهم أحسن الدرجات في مقعد صدق، بل إنه عز شأنه قد جعل من المحن ابتلاء صادقا يمتحن به المؤمنين المخلصين:{ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾} [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وفي الأثر أن أبا بكر ﷺ سأل الرسول ﷺ عن قول الله:{ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [النساء: ١٢٣]، وقال: فكل سوء عملناه سنجزى به فكيف الخلاص يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ :(**غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تحزن؟ ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ فهذا ما تجزون به، وإن ذاك بذاك!!**) [(١)].

وقد أثبت التحليل النفسي أن أكثر الأمراض العقلية يرجع إلى هموم متراكمة، تجمعت شيئا فشيئا، ثم اندفعت إلى العقل الباطن تنفث السموم، وتستدعى إلى غيرها مما ينخرط معها في سلك الشقاء، وفي النهاية تتألب على صاحبها المسكين، فتثكله صوابه الراشد، وتخرج به عن نطاق العقلاء، ومن الخير للمحزونين - ومأساتهم تلك - أن ينفسوا عن صدورهم بالبث والإعلان لمن يثقون في مروءتهم وإخلاصهم، حتى تتبخر رواسبهم المدمرة شيئا فشيئا وعلى هؤلاء أن يفسحوا لهم سبيل الإذاعة والتنفيس، وأن يجدوا له بعض الأدوية الناجعة في توجيه سديد، أو معونة صادقة، دون سخرية أو استهزاء، على ألا يكون المريض شكاء متباكيا، فاللجاجة وحدها مرض خبيث يتطلب العلاج، ولكن أين من يرحم المحزون في دنيا تشابكت فيها المطامع، وتدابرت بها العواطف والأهواء:

---

(١) قضايا إسلامية، د/رجب البيومي.

أساة جسمك شتى حين تطلبهم ::: فمن لروحك بالنطس المداوينا

وإذا كنا نعيش في الدنيا بفرحنا وترحنا، فلنتذكر الوقوف الأكبر فمنا الشقي ومنا السعيد**!**.

* * *

الموقف السابع

قوة الشخصية

الموقف السابع:
قوة الشخصية

من هو المعلم المثالي؟

لو أن هذا السؤال طرح على عدد من رجال التربية، لأسهبوا في الرد عليه، وفي تعداد الصفات التي يجب أن تتوافر في المعلم أولا، ولأفاضوا في سرد تلك الصفات التي يجب أن ينفرد بها المعلم المثالي.. ومما لاشك فيه أنهم سوف يعطون الصفات الخلقية جانبا من عناياتهم واهتماماتهم، ولسوف يقولون: إننا في حاجة ماسة إلى (كشف هيئة) قبل أن نقبل طلاب دور المعلمين، ومعاهد التربية، إذ يتحتم أن يكون المعلم مهيبا، محترما، قوى الشخصية... ولا نظننا في حاجة إلى الحديث عن مظهر رسول الله ﷺ، عن هيبته واحترام الناس له...

ولقد حفظ التاريخ الكثير عن صورة محمد ﷺ

ونحن نذكر قصة ذلك الرجل الذي رأى سيدنا محمد ﷺ نائمًا تحت شجرة يستظل بها، وفاجأه يأتيه الرجل حاملا سيفه للرسول الكريم الذي استيقظ لحظة أحس به:

- من يستطيع أن ينقذك الآن من يدي يا محمد؟

لم يهتز الرسول، ولم يخف، بل أجاب في مهابة وثقة:**(الله سبحانه وتعالى)**.

اضطرب الرجل وخاف وارتعش، وسقط السيف من يده، فأخذه الرسول وسأل الرجل نفس السؤال:**(وأنت من يستطيع أن ينقذك من يدى)** [١].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد.

هتف الرجل: عفوك.. وعفا عنه الرسول ﷺ..

إن قوة شخصية الرسول قد أفزعت الرجل وأرعبته حتى أنها أسقطت من يده السيف.. وكان الرسول قد استيقظ لتوه من النوم، ومع ذلك تدارك نفسه، وفرض على الرجل مهابته وشخصيته [١].

وليست هذه هي الحكاية الوحيدة التي رويت عن قوة شخصية الرسول ومهابته، فهناك قصة أقرب إلى الأسطورة في هذا المجال ذاته.. فذات يوم جاء رجل غريب إلى مكة ومعه جمال يريد أن يبيعها، فاشتراها منه أبو الحكم ابن هشام الذي سماه المسلمون " أبا جهل " ومثل عادة الكفار في الجاهلية، أراد أبو جهل ألا يدفع ثمن الجمال التي اشتراها، فذهب التاجر الغريب يبحث عن رجل صاحب شخصية وكلمة مسموعة يوسطه عند أبى جهل ليدفع له حقه. وسأل رجلين عن الطريق في لحظة مر فيها الرسول، فخطر بهما أن يسخرا منه وأن يدفعا به إلى أبى جهل ليؤذيه، فأشار إلى محمد وقال للتاجر:

اذهب إلى محمد.. هذا الذي يسير هناك.. سوف يأخذ لك حقك.. أسرع التاجر الغريب إلى محمد، وحكى له حكايته، فما كان من الرسول الكريم إلا أن أخذ بذراع التاجر ومضى، إلى دار أبى جهل والرجلان يتبعانهما في دهشة، وينتظران أن يضرب أبو جهل سيدنا محمدًا ﷺ، الذي مضى يطرق باب الرجل الكافر القاسي، ويفتح أبو جهل ليقول له الرسول:**(أعط لهذا الرجل حقه)**.

وإذا بأبي جهل يدخل إلى البيت، ويعود، لا حاملا سوطا أو سيخا محميا في النار أو عصا كما توقع الرجلان، بل كان يحمل معه صرة مال.. أعطاها للرجل الذي راح يعد النقود وهو لا يكاد يصدق نفسه..

(١) انظر: محمد المثل الكامل، الرسول مربيًا ومعلما، النبي الخاتم، أيام في حياة محمد.

وسأله الرسول ﷺ :**(هل هذا كل حقك)**.

أجاب الرجل: نعم.. إنه حقي كاملا..

انصرف محمد دون أن ينتظر كلمة شكر أو تقدير.. والرجلان مذهولان واندفعا إلى بيت أبى جهل يسخران منه وما حدث، وإذا به يقول:

فتحت الباب وكنت أنوي بمحمد كل شر، ولكنني رأيت كأن جملا ضخما يطل على من فوق رأس محمد، فاتحا فمه كاشفا عن أنيابه ويريد أن ينقض على إذا أنا وقفت أناقش أو أعارض... وراح هذا الجمل يتابعني ويطاردني ويدفعني دفعا إلى مكان النقود - كأنما يعرف مكانها - حتى حملتها.. ومرة أخرى يدفع بي ناحية الباب إلى أن دفعت للتاجر ماله.. واختفى الجمل..

قال أحد الرجلين: لقد كنا نشاهد ما حدث، ولم يكن مع محمد أو فوق رأسه جمل ولا شيء.

قال الثاني: لقد أرعبتك شخصية محمد وأفزعك إقدامه وثباته في طلب الحق وخيل لك الرعب والفزع شبح الجمل [(١)].

ماذا يقول علم النفس في تحليل هذه القصة؟

إنها واضحة المدلول والدلالة، لا تحتاج منا إلى تعليق أو تعقيب.. إن شخصية محمد، ومهابته، فرضت نفسها على الكفار قبل المؤمنين.

ولدينا صورة وصفية للرسول رسمتها " أم معبد " لزوجها حين مر بها الرسول ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة. ولجأ إليها باحثا عن طعام، وحلب شاتها العجفاء.. وعندما عاد الزوج سألها عن هذا

(١) انظر سيرة ابن هشام، المجلد الأول.

الرسول فأجابته قائلة:

" رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، متبلج (مشرق الوجه) حسن الخلق، لم تعبه ثجلة (ضخامة البطن) ولم تزره صلعة (لم يشنه صغر الرأس) وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف (طويل شعر الأجفان) وفي صوته صحل (رخيم الصوت) أحور أكحل. أزج. أقرن. شديد سواد الشعر، في عنقه سطح (ارتفاع وطول) وفي لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقة خرزات نظم ينحدرن، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هزر (لاعى فيه ولا ثرثرة في كلامه) أجهر الناس أجملهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب، ربعة (وسط ما بين الطول والقصر) لا تشوؤه (تبغضه) من طول، ولا تقتحمه عين (تحتقره) من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفون به، إذا قال، استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود (يسرع أصحابه في طاعته) محشود (يحتشد الناس حوله) لا عابث ولا مفند (غير منحرف في الكلام) [١].

(١) رواه الطبراني في الكبير، مجمع الزوائد.

ورسم عمرو بن العاص صورة أخرى للرسول ﷺ.. (ما كان أحد أحب إلى من رسول الله ولا أجل في عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت: لأني لم أكن أملأ عينى منه) (١).

لقد تحققت في الرسول أولى صفات المعلم.. وتحققت في مثالية رائعة.. تلك هي قوة شخصية.. مهابته.. احترام الناس له..

* * *

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان.

الموقف الثامن

(٨)

شخصية النبي ﷺ وأثرها في صناعة القادة

الموقف الثامن:

شخصية النبي ﷺ وأثرها في صناعة القادة

كانت دار الأرقم بن أبى الأرقم أعظم مدرسة للتربية والتعليم عرفتها البشرية وكيف لا وأستاذها هو رسول الله ﷺ أستاذ البشرية كلها، وتلاميذها هم الدعاة والهداة، والعلماء الربانيون الذين حرروا البشرية من رق العبودية وأخرجوهم، من الظلمات إلى النور، بعد أن رباهم الله تعالى على عينه تربية غير مسبوقة ولا ملحوقة [(١)].

في دار الأرقم وفق الله تعالى رسوله إلى تكوين الجماعة الأولى من الصحابة... نقلهم من هباء الجاهلية إلى نور الإيمان، وأصبحوا جميعا من عظماء الرجال ومشاهير العرب وصناع التاريخ البشرى، حيث قامو بأعظم دعوة عرفتها البشرية.

إن خريجي مدرسة الأرقم من عظماء الرجال في العالم، وهم الذين قامت عليهم الدعوة، والجهاد والدولة والحضارة فيما بعد؛ فلم يجد الزمان بواحد مثل أبى بكر الصديق وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص... إلخ.

لقد استطاع الرسول المربى الأعظم ﷺ أن يربى في تلك المرحلة السرية، وفي دار الأرقم أفذاذ الرجال الذين حملوا راية التوحيد، والجهاد والدعوة فدانت لهم الجزيرة، وقاموا بالفتوحات العظيمة في نصف قرن.

كانت قدرة النبي ﷺ فائقة في اختيار العناصر الولي للدعوة من خلال السنوات الثلاثة الأولى من عمر الدعوة، وتربيتهم وإعدادهم إعدادا خاصا ليؤهلهم لاستلام الدعوة وحمل الرسالة، فالرسالات الكبرى، والأهداف الإنسانية العظمى لا يحملها إلا كل الرجال وكبار

(١) دولة الرسول من التكوين إلى التمكين.

القادة، وعمالقة الدعاة كانت دار الأرقم مدرسة من أعظم المدارس وجامعات العالم، التقى فيها الرسول المربى بالصفوة لمختارة من الرعيل الأول (السابقين الأولين)، فكان ذلك اللقاء الدائم تدريبا عمليا لجنود المدرسة على مفهوم الجندية والاستجابة والطاعة والقيادة وآدابها وأصولها، ويشحذ فيه القائد الأعلى جنده وأتباعه بالثقة بالله والإيمان والإصرار ويأخذهم بالتزكية والتهذيب، والتربية والتعليم، كان هذا اللقاء المنظم يشحذ العزائم ويقوى الهمم، ويدفع إلى البذل والتضحية والإيثار.

كانت نقطة البدء في حركة التربية الربانية الأولى لقاء المدعو بالنبي ﷺ، فيحدث للمدعو تحول غريب واهتداء مفاجئ بمجرد اتصاله بالنبي ﷺ، فيخرج المدعو من دائرة الظلام إلى دائرة النور، ويكتسب الإيمان ويطرح الكفر، ويقوى على تحمل الشدائد والمصائب في سبيل دينه الجديد وعقيدته السمحة.

كانت شخصية رسول الله ﷺ المحرك الأول للإسلام، وشخصيته ﷺ تملك قوى الجذب والتأثير على الآخرين، فقد صنعه الله عينه، وجعله أكمل صورة لبشر في تاريخ الأرض والعظمة دائما تحب، وتحاط من الناس بالإعجاب، ويلتف حولها المعجبون يلتصقون بها التصاقا بدافع الإعجاب والحب، ولكن رسول الله ﷺ يضيف إلى عظمته تلك، أنه رسول الله، ملتقى الوحي من الله، ومبلغه إلى الناس، وذلك بعد آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه فهو لا يحبه لذاته فقط كما يحب العظماء من الناس، ولكن أيضا لتلك النفحة الربانية التي تشمله من عند الله، فهو معه في حضرة الوحي الإلهي المكرم؛ ومن ثم يلتقي في شخص البشر العظيم والرسول العظيم، ثم يصبحان شيئا واحدا في النهاية، غير متميز البداية ولا النهاية.. حب عميق شامل للرسول البشر أو للبشر الرسول ويرتبط حب الله بحب

رسوله ويمتزجان في نفسه، فيصبحان في مشاعره هما نقطة ارتكاز المشاعر كلها، ومحور الحركة الشعورية والسلوكية كلها كذلك.

كان هذا الحب الذي حرك الرعيل الأول من الصحابة هو مفتاح التربية الإسلامية ونقطة ارتكازها ومنطلقها الذي تنطلق منه.

المادة الدراسية في دار الأرقم:

كانت المادة الدراسية التي قام النبي ﷺ بتدريسها في دار الأرقم القرآن الكريم، فهو مصدر التلقي الوحيد، فقد حرص الحبيب المصطفى على توحيد مصدر التلقي وتفرده وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج والفكرة المركزية التي يتربى عليها الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة، وكان روح القدس ينزل بالآيات غضة طرية على رسول الله ﷺ فيسمعها الصحابة من فم رسول الله ﷺ مباشرة، فتسكب في قلوبهم وتتسرب في أرواحهم، وتجرى في عروقهم مجرى الدم وكانت قلوبهم وأرواحهم تتفاعل مع القرآن الكريم وتنفعل به، فيتحول الواحد منهم إلى إنسان جديد بقيمه ومشاعره، وأهدافه وسلوكه وتطلعاته [(١)].

لقد حرص الرسول ﷺ حرصا شديدا على أن يكون القرآن الكريم وحده هو المادة الدراسية، والمنهج الذي تتربى عليه نفوس الصحابة وألا يختلط تعليمهم بشيء من غير القرآن.

في دار الأرقم تعلموا أن القرآن وحده وتوجيهات الحبيب المصطفى هما الدستور الأول للدعوة والحياة والدولة والحضارة كان القرآن الكريم المادة الدراسية الوحيدة التي تلقاه في مدرسة الأرقم على يد المربى الأعظم محمد ﷺ، فهو المصدر الوحيد للتلقي، وعليه يكون الجيل الفريد من هذه الأمة العظيمة، فهو كتاب هذه الأمة الحي

---

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية.

ورائدها الناصح، وذلك لمدرستها التي تتلقى فيها دروس حياتها.

لقد تلقى الرعيل الأول القرآن الكريم بجدية ورعى وحرص شديد على فهم توجيهه والعمل بها بدقة تامة، فكانوا يلتمسون من آياته ما يوجههم في كل شؤون حياتهم الواقعية والمستقبلية.

فنشأ الرعيل الأول على توجيهات القرآن الكريم، وجاءوا صورة علمية لهذا التوجيهات الربانية، فالقرآن كان هو المدرسة الإلهية، التي تخرج منها الدعاة والقادة الربانيون، ذلك الجيل الذي لم تعرف له البشرية مثيلا من قبل ومن بعد لقد أنزل القرآن الكريم على قلب رسوله، لينشئ أمة ويقيم به دولة، وينظم به مجتمعا وليربى به ضمائر وأخلاقا وعقولا، ويبنى به عقيدة ونصرًا وأخلاقا، ومشاعرا، فخرج الجماعة المسلمة الأولى التي تفوقت على سائر المجتمعات في كل المجالات؛ العقدية والروحية والخلقية، والاجتماعية، والسياسية والحربية.

دار الأرقم: منسوبة إلى الأرقم بن أبى الأرقم ﷺ صاحب رسول الله ﷺ، وكانت مركزا للدعوة الإسلامية سرا في صدر بعثته، وكان المسلمون يجتمعون بها ويصلون بها سرا حتى تكاملوا أربعين شخصا بإسلام عمر بن الخطاب ﷺ فجهروا بالإسلام والصلاة. وفي سنة ١٧١ هـ / ٧٨٧ م بنت الخيرزان جارية المهدى العباسي مسجدا في موضع هذه الدار التي كانت على بعد ٣٦ م من الصفا شرقا خارج المسعى، وكانت موضع اهتمام وعناية خلفاء المسلمين تعميرا وترميما، وفي سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م هدمت لصالح التوسعة في هذه الجهة. وتخليدا لذكراها فإن أول باب في المسعى بجوار الصفا سمى بباب دار الأرقم لقربه من موضع هذه الدار.

ولعل موضعها الآن مما يلى السلالم المتحركة في هذه الجهة [١].

الأسباب في اختيار دار الأرقم:

كان اختيار دار الأرقم لعدة أسباب منها:

١- أن الأرقم لم يكن معروفا بإسلامه، فما كان يخطر ببال أحد أن يتم لقاء محمد وأصحابه بداره.

٢- أن الأرقم بن أبى الأرقم رضي الله عنه من بنى مخزوم وقبيلة بنى مخزوم هي التي تحمل كل التنافس والحرب ضد بنى هاشم. فلو كان الأرقم معروفا بإسلامه فلا يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره، لأن هذا يعنى أنه يتم في قلب صفوف العدو.

٣- أن الأرقم بن أبى الأرقم كان فتى في إسلامه فلقد كان في حدود السادسة من عمره، ويوم تفكر قريش في البحث عن مركز التجمع الإسلامي فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصغار من أصحاب محمد ﷺ بل يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه أو بيته هو نفسه عليه الصلاة والسلام.

٤- فقد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب في أحد دور بنى هاشم، أو في بيت أبى بكر الصديق رضي الله عنه أو غيره ومن أجل هذا نجد أن اختيار هذا البيت كان في محله.

فأين الشخصيات القيادية الآن التي تقود الأمة وتوحد صفوفها من جديد، كما فعل الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم ؟!

* * *

(١) تاريخ مكة، تاريخ المدينة.

الموقف التاسع

بكاء الرسول ﷺ
(لغة الحاشعين)

الموقف التاسع:

بكاء الرسول ﷺ لغة الخاشعين

١ - **الحديث الأول:** (الرسول ﷺ مع عبد الله بن مسعود)

الرسول ﷺ : وهو على المنبر:(**اقرأ عليَّ..**).

ابن مسعود: أقرأ عليك، وعلي أنزل؟!

الرسول ﷺ:(**أحب أن أسمعه من غيري**).

عبد الله بن مسعود يقرأ من سورة النساء حتى أتى هذه الآية: { فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾} [النساء: ٤١].

الرسول:(**حسبك الآن**).

يلتفت ابن مسعود إلى الرسول فإذا عيناه تذرفان (أي تدمعان) متفق عليه

يستفاد من هذا الحديث:

١- أن الخشوع عند سماع القرآن يكون بالبكاء لا بالصياح.

٢- قول الرسول ﷺ للقارئ:(**حسبك الآن**) ولم يقل : (صدق الله العظيم).

٣- كان رسول الله ﷺ يحب سماع القرآن من غيره.

٣- **الحديث الثانى:** " يدخل الصحابة مع رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وعند مرضعته، فيأخذه ويقبله ويشمه. ثم يدخل الصحابة بعد ذلك فيجدون إبراهيم يجود بنفسه (أي يموت) فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان (تدمعان) ".

عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله! (تبكى)؟

الرسول ﷺ: " إنها رحمة.. إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون " متفق

عليه.

يستفاد من الحديث:

١- جواز البكاء على الميت بدون صراخ ونواح.

٢- جواز الحزن على الميت، مع الرضا بالقدر وتجنب الكلام الذي يدل على السخط.

٣- البكاء رقة في القلوب وخشوع وخضوع لله جل وعلا.

* * *

رؤيا الرسول ﷺ

١- قال رسول الله ﷺ:**(من رآني في المنام فقد رآني حقا، فإن الشيطان لا يتمثل بي).**

٢- وقال ﷺ:**(من رآني فقد رأى الحق، فإن الشيطان لا يتزيا بي).**

٣- وقال ﷺ:**(من رآني في المنام، فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل بي الشيطان).**

يستفاد من هذه الأحاديث:

١ - أن رؤيا الرسول ﷺ ممكنة، على الوجه الذي ورد في شمائله ﷺ من طوله، ولونه، وهيئته، ولحيته، وغير ذلك.

٢ - لقد ذكر المناوي في تفسير هذه الأحاديث أن الرؤيا الصحيحة: أن يراه بصورته الثابتة بالنقل الصحيح، فإن رآها بغيرها كطويل أو قصير، أو شديد السمرة. لم يكن يراه.

٣ - وذكر المناوي أن معنى قوله ﷺ:**(فسيراني في اليقظة)** رؤية خاصة بصفة القرب والشفاعة (يوم القيامة).

- لا تكثر المزاح، ولا تقل إلا الصدق.
- ارحم الإنسان والحيوان حتى يرحمك الله.

- احذر البخل، فهو مكروه من الله والناس.
- نم باكرا، واستيقظ باكرا للعبادة والاجتهاد والعمل.
- لا تتأخر عن صلاة الجماعة في المسجد.
- احذر الغضب وما ينتج عنه، وإذا غضبت فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.
- الزم الصمت، ولا تكثر الكلام فهو مسجل عليك.
- اقرأ القرآن بفهم وتدبر، واسمعه من غيرك.
- لا ترد الطيب، واستعمله دائما، لاسيما عند الصلاة.
- استعمل السواك فهو مفيد جدا، لاسيما عند الصلاة.
- كن شجاعا، وقل الحق ولو على نفسك.
- اقبل النصيحة من كل إنسان، واحذر ردها.
- اعدل بين زوجاتك وأولادك وفي كل أعمالك
- اصبر على أذى الناس وسامحهم، حتى يسامحك الله.
- أحب للناس ما تحب لنفسك.
- أكثر من السلام عند الدخول والخروج واللقاء وفي الأسواق.
- تقيد بلفظ السلام الوارد في السنة، وهو: " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " ولايغنى عنه كلمة (صباح الخير، ومساء الخير)، أو (أهلا أو مرحبا) ويمكن قولها بعد السلام.
- كن نظيفا في مظهرك ولباسك.
- غير شيبك بالأصفر أو الأحمر، واحذر السواد امتثالا لأمر الرسول ﷺ.
- تمسك بسنن الرسول ﷺ حتى تدخل في قوله ﷺ:**(إن من ورائكم أيام الصبر، للمتمسك فيهن بما أنتم عليه أجر خمسين منكم)**، قالوا: يا نبي الله أو منهم؟ قال:**(بل منكم)**.

- اللهم ارزقنا العمل بكتابك، وسنة نبيك، وارزقنا حبه واتباعه وشفاعته ﷺ.

مكارم أخلاق الرسول ﷺ

يامن له الأخلاق ماتهوى العلا ::: منها ومايتعشق الكبراء
لو لم تقم دنيا لقامت وحدها ::: دنيا يضئ بنوره الآناء
زانتك في الخلق العظيم شمائل ::: يغرى بهن ويولع الكرماء
وإذا سخوت بلغت بالجود المدى ::: وفعلت ما لم تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادرا ومقدرا ::: لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فانت أم أو أب ::: هذان في الدنيا هما الرحماء
وإذا غضبت فإنما هي غضبة ::: في الحق لاضغن ولا بغضاء
وإذا رضيت ففى مرضاته ::: ورضى الكثير تحلم ورياء
وإذا خطبت فللمنابر هزة ::: تعرو الندى وللقلوب بكاء
وإذا قضيت فلا ارتياب كأنما ::: جاء الخصوم من السماء قضاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته ::: فجميع عهدك ذمة ووفاء
بك يا بن عبد الله قامت سمحة ::: بالحق من ملل الهدى غراء
بنيت على التوحيد وهى حقيقة ::: نادى بها (الحكماء والعقلاء)
الله فوق الخلق فيها وحده ::: والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة ::: والأمر شورى والحقوق قضاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى ::: فالكل في حق الحياة سواء
ظلموا شريعتك التي نلنا بها ::: ما لم ينل في رومة الفقهاء
صلى عليك الله ماصحب الدجى ::: جاد وحنت بالفلا وجناء

من ديوان الشاعر أحمد شوقي.

إذا كانت هذه بعض أوصافه وأخلاقه وكيفية بكائه لله ثم رحمة بمن حوله، فكيف ببكائنا على القليل والكثير، وما أصعب البكاء لدين

الموقف العاشر

(١٠)

إلى محمد ﷺ ترد الفضائل جميعها

الموقف العاشر:
إلى محمد ﷺ ترد الفضائل جميعها
١- إجمال:

اختص الله نبيه محمد ﷺ بالمحامد الكثيرة، والمآثر الأثيرة، وأظهر على يديه الآيات، وأقام له الألوية والرايات، وفضله على خاصته وأحبابه، وأثنى عليه في غير موضع من كتابه، ونصره بالرعب مسيرة شهر، وأبقى معجزته ما بقى الدهر، وكلأه بعنايته وشمله برعايته، وأيده بالبراعة واللسن، وركب فيه كل خلق حسن، وآتاه جوامع الكلم، وحض على الاقتداء بهديه، و أمر بامتثال أمره ونهيه، وأجرى جواري الخير على يديه، وأوحى إليه وناجاه، وآراه من آياته الكبرى، وكرمه في الدنيا والآخرة، وأسبغ عليه من القبول أحسن المطارف، وأولاه كثيرا من الخصائص، وسواه فعدله، وأدبه فأحسن تأديبه، علمه ما لم يكن يعلم، وأرشده إلى حل كل مشكل ومبهم، وجبله على الصيانة والعفاف، وأقام به ميزان العدل والإنصاف، وأفرده بإيداع سره المصون، وعضده بكتاب كريم في كتاب مكنون، ومنح جانبه العزيز لينا، وذاته الكريمة لطفا، وفتح به أبصارا عميا وآذانا صما، وقلوبا غلفا. ولم يبعث نبيا إلا ذكر له نعته ومسلكه، وأخذ عليه الميثاق بالإيمان به ونصره إن هو أدركه، ولم يعط أحدا من الأنبياء فضيلة إلا أعطاه مثلها وزيادة، نزه لسانه عن النطق بهواه، وفؤاده عن الكذب فيما رآه. وجنبه الزيغ وزكاه. وعصمه من الأغراض، وأناله من نيل الكرامة غاية السول، وقرن طاعته بطاعته في قوله تعالى:{مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا } [النساء: ٨٠]، وسماه في كتابه نورا بقوله تعالى:{قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ } [المائدة: ١٥]، وشرح له بالرسالة صدرا. ورفع له بذكره معه في الشهادتين ذكرا،

وأيده بأظهر البراهين، وأبهر المعجزات، ودرأ العذاب عن أهل مكة لكونه بواديهم، فقال تعالى:{ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ} [الأنفال: ٣٣]، وطهره من الأقذار والأدناس، ودل على عصمته في قوله تعالى:{وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ} [المائدة: ٦٧]، وأحسن مخاطبته في سورة ن، ووعده فيها بأجر غير ممنون، وأثنى عليه الثناء المستطاب العظيم، بقوله تعالى:{ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤].

٢- تفصيل:

إذا تصفحنا سيرة العظماء الذين شاد بذكرهم التاريخ، وجدنا أن محمد عليه الصلاة والسلام أرفعهم ذكرا، وأبقاهم أثرا، فما عهد التاريخ رجلا من عظمائه قد أهاب بأمة كالعرب ذات بأس وصراحة وحمية وإباء، وذات خيال وتصور، يدعوها أن تخلع نفسها مما هي فيه، وأن تضع أعناقها للحق الذي لم تألفه حقا، وأن تعطيها مع ذلك محض ضمائرها، وهم لايرون من أمره ذلك إلا قلة وهوانا واستخفافا، وإن كانوا يعرفونه من قبل محسن الخلق، صفاء الذمة، وطهارة الضمير، ويعرفون أنه لايريد ملكا، ولاينبغى شيئا من عرض الدنيا، بل قالوا: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥} [فصلت: ٥].

ثم مع هذا كله لا يداخلهم بالنفاق، ولا يتألفهم على باطلهم، ولاينزل في العقيدة على حكمهم دهاء ومخاتلة، كما يصنع دهاة السياسة وقادة الأمم، وكما صنع نابليون في مصر: إذ تظاهر بحب الإسلام، وكما قال: (لو كنت أحكم شعبا يهوديا لأعدت هيكل سليمان عليه السلام).

أما صاحب الشريعة الإسلامية ﷺ فلم يفعل شيئا من ذلك: قد عرض عليه الانتصار على المشركين بالمشركين، وهو في قلة

وحاجة إلى رجل واحد، يزيد في عدد من معه، فأبى وقال:(**لا أنتصر بمشرك**) ومع هذا قد اجتمع له ما أراد، وأعطته الأمة العربية عن يد وهى صاغرة للحق، وبذلت له نصرها بعد التخذيل عنه، وتعطفت عليه بقلوبها الجامحة، وهو الراغب عن سنتهم، والمسفه لأحلامهم، والطاعن على شرائعهم.

إن نظرة بإمعان في التاريخ، تدلنا على أن العظماء يظهرون بين أقوامهم مماشاة لتدرجهم ورقيهم: فإن كان رقيبهم في باب الحقائق الفكرية، ظهر من بينهم حكيم يضيء لهم السبيل بثاقب فكره وسديد رأيه: وإن كان رقيبهم في باب الفتح وبسط الملك، ظهر من بينهم فاتح عظيم يقودهم إلى الأقطار المتاخمة والنائية.

وكذلك القول في العلماء والشعراء والخطباء وغيرهم من عظماء الرجال الذين يترجمون عن وجهة أقوامهم، فكل عظيم من هؤلاء هو روح عصره، وظهوره جار على سنة النشوة والارتقاء - بيد أن محمدا ﷺ لم يكن جاريا على هذه السنة، بل جاء والعرب قد نزلوا على هاوية الانحلال الاجتماعي، بما لم يعد له مثيل في تاريخ الأمم: فكانوا في جهل مطبق بأحكام الدين الصحيح، ومبادئ السياسة، والحياة الاجتماعية، ولم يكن لهم فن يذكر، أو صناعة تنتشر، ولم يكونوا يعرفون شيئا من العلاقات الدولية، وكانت كل قبيلة أمة قائمة بنفسها، تتحفز لشن الغارة على جارتها، فلم يكن من المألوف أو المعقول، إن بيئة كهذه البيئة تتمخض عن هذا العظيم الذي اجتمع له ما لم يجتمع لمصلح من قبله: لأنه كون أمة، وأسس دولة، وأقام دينا، أمور ثلاثة لم تجتمع لأحد من قبله ولا من بعده، ولا يعد ظهور بعض الأفراد النابهين، أمثال أَكثم بن صيفى دليلا على صلاحية البيئة العربية لإخراج أكبر المصلحين. الحق أن العناية الإلهية القادرة التي تخلق الحيات في ظلمات البحار، هي التي أبرزت هذا

الإنسان العظيم، وأمدته بعنايتها، وجعلته نورا ينسخ الظلمات جميعها، فيضيء أطراف الأرضين.

العظمة ليست وقفا على ما يتم من يد صاحبها من المعجزات أو العجائب، وليست وقفا على ما هو عليه من الفصاحة والقدرة على استنباط النظريات، فكل هذه مظاهر لا تلبث إلا أن تزول: إنما العظمة الحقيقية هي الشخصية القوية الثابتة، وهى التي تأتى بالعجائب، وتأخذ بألباب المحتفين بصاحبها، وتملك مشاعر الذين يجيئون من بعده، فتظل عظمته في سيرته.

الشخصية الكاملة هي التي تلقى في قلوب أهل جيلها احتراما وهيبة لصاحبها ورغبة فيه، وتحملهم على محاكاته، وتحبب إليهم طاعته، ثم تصبغهم بصبغته، وتخلق في نفوسهم أساسا جديدا لتقبل عقيدته وآرائه، ويتصل تأثيرها هذا بقلوب الأجيال القادمة، فتظل عظمته خالدة.

كان محمد ﷺ هو صاحب هذه الشخصية الكاملة، فلم يجئ قبله ولا بعده من يدانيه فيها: فقد بهر معاصريه، فأقروا له بالرفعة والتفوق، وكان كثير منهم من أصحاب البيوت الرفيعة، والأحلام الراجحة، والأموال الوافرة، وكان كثير منهم من ذوى قرباه الذين يعلمون حق العلم حياتيه العامة والخاصة. ولو علموا عليه من عيب لأذاعوه، أو وقفوا على نقص لأشاعوه.

احتمل أصحابه في مدى الثلاث عشرة سنة من بدء البعثة كثيرا من الشدائد، وضروب الأذى والاضطهاد: فكانت كل قبيلة تعذب من دان منها له أنواعا من التعذيب يفزع قلب الحليم من ذكرها، وهم يحملونها بصبر عجيب، حتى نصح المصطفى ﷺ لبعضهم بالهجرة إلى الحبشة كما سيأتى. ومع هذا كله كان عدد أتباعه آخذا في النماء.

فما سبب تهافتهم عليه، واحتمال كل أذى في سبيله؟ إن هو إلا شخصيته الجذابة، التي ملكت عليهم قلوبهم ومشاعرهم، فانصاعوا له حتى استطاع أن ينشئ منهم جيلا فتيا، ولم يستطع الفلاسفة على اختلاف عصورهم، أن ينشئوا جيلا كالذي أخرجه محمد ﷺ أو يدانيه فكانوا نسلا حسنا في علو النفس وصفاء الطبع، ورقة الجانب وقوة اليقين، وطهارة الخلق، وعظم الأمانة، وإقامة العدل، والخضوع للحق، إلى غير ذلك من أمهات الفضائل.

من أجل ذلك وجب تفصيل طرف مما أتاه الله من الفضائل، في نسبه ونشأته وأعماله: ليتبين للعالم أجمع أن محمدا ﷺ هو الأسوة الحسنة الصالحة لرياضة الأفراد وسياسة الأمم، وأن جميع الخلال الحميدة المثمرة مقتبسة من حالة مأخوذة عنه.

نعم... من أجل ذلك يرد إلى محمد صلي الله عليه وسلم الفضائل جميعها، لأنه ما رأى بابًا من أبواب الخير إلا وأرشدنا إليه، وما رأى بابًا من أبواب الشر إلا وحذرنا منه [١].

* * *

(١) انظر: محمد المثل الكامل، الرسول مربيًا ومعلمًا من ماضي الإسلام وحاضره، السيرة النبوية.

الفصل الثاني:
الرحمة.. والعناء

الموقف الحادى عشر

(١١)

حادثة شـق الصـدر للنبــي ﷺ

الموقف الحادى عشر:

حادثة شق الصدر للنبى ﷺ

فإن مصدر وحى الأنبياء واحد، فقد طلب موسى عليه السلام من الله تعالى أن يشرح صدره عقب تكليفه أمانة الرسالة إلى فرعون وقومه:{ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾} [طه: ٢٤ - ٢٥]، وقد استجاب الله دعاء موسى فقال جل شأنه عقب تمام الدعاء:{قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ} [طه: ٣٦]، أما سيدنا محمد ﷺ فقد امتن الله عليه ابتداء بنعمة انشراح الصدر وساق القرآن الكريم تلك النعمة على سبيل التقرير والتأكيد فقال:{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾} [الشرح: ١]، وقد تكلمت سورة الشرح عن المقصود بانشراح الصدر لرسول الله ﷺ بجانب من الإجمال وشرح الصدر عند المفسرين له معنيان:

الأول: علوم القرآن:

هو ما جاء به الله تعالى من العلم الشريف والتكريم العظيم والعبادة الخالصة المخلصة وأعظم النعم هو اصطفاء النبي واجتباؤه بالرسالة والوحى بالقرآن قال تعالى:{وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } [النساء: ١١٣].

وجاء القصص القرآني:

(أ) يشرح تاريخ الأنبياء وعلاقتهم بأقوامهم وسنة الله في الأولين.

قال تعالى:{ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾} [هود: ١٢٠].

(ب) رؤية الآيات:

من معاني شرح الله صدر رسوله ﷺ رؤية الآيات التي أظهرها الله لنبيه ﷺ (كانشقاق القمر - نبع الماء من بين يديه - حنين الجذع إليه).

(جـ) ثناء الله على رسوله:

جاء الثناء في أكثر من موضع منها:{لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ} [التوبة: ١٢٨].

(د) انشراح صدر رسول الله بمخاطبة مولاه له بقوله:

{إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الحجر: ٧٢]، عمر النبي ﷺ.

{وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾} [التين: ٣]، بلد النبي ﷺ.

{وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ} [آل عمران: ٨١]، من الأنبياء، من الناس (١).

الثاني: شق الصدر الشريف:

تحدث الرواة عن هذه الحادثة بطرق شتى وأساليب مختلفة، وقد تكررت هذه الحادثة في مراحل حياة النبي ﷺ فبعضها حدث له في الصغر كما حدث له أيضا بعد البعثة، والبعض عدوها أسطورة من الأساطير التي اخترعها المسلمون الأولون (٢).

١- في فترة الرضاعة:

حيث كان النبي مع أخيه السعدي ورأى رجلان أبيضان... وإقرار النبي بذلك: الوصول إلى الله، وكان معهما طست من ذهب، ووزن عشرة مائة (ألف).

---

(١) من مقال للدكتور/ محمد المسير - رحمه الله -.
(٢) كما ذكر صاحب كتاب (حياة محمد).

- روى مسلم من حديث أنس أنه قال: (وكنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره).

٢- وهو ابن عشر سنين:

سببه: ما كان في زمن الطفولة والصبا لينشأ على أكمل الأحوال من العصمة تكررت حسبما رواه عبد الله بن أحمد في زوائد مسند ابن حنبل وابن حبان والحاكم وابن عساكر عن أبى هريرة رضي الله عنه.

٣- عند نزول الوحي:

ما كان عند الوحي ليتلقى الوحي بقلب قوى في أكمل حالات الطهر، كما روى ذلك مسلم والزبيدي وأبو نعيم والبيهقي في دلائلهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

٤- عند الإسراء والمعراج: (ليتأهب للمفاجأة العلوية القدسية).

كما جاء ذلك في حديث الإسراء والمعراج.

*** المستشرقون وحادثة شق الصدر:**

ورأيهم أنهم قالوا:

١- إن الذي رأى الحادثة ورواها هو طفل لا يعدو السنتين وكان كذلك سن محمد يومئذ.

- الطفل السعدي لم يكن يروى لنا هذا الأمر على سبيل الإخبار وإنما قص ما شاهده، وهو يستنجد بوالديه لأن ضررًا سيلحق بأخيه القرشي ولما وصلا للنبي أكد لهم النبي ما قاله السعدي وهذا ليس فيه اختراع ولا كذب إذ أن الطفل يقص ما يرى وقد أيد النبي ﷺ ذلك بعد البعثة.

٢- لو كانت الحادثة صحيحة لترتب عليها إرجاع محمد لأهله بعد زمن يسير (سنتين ونصف) ولكن غالب الرواة قالوا أنه رجع حينما بلغ الخامسة.

- نقول أن محمدا رد في الثالثة - الرابعة - الخامسة، ويمكن القول بأنه عاد مع حليمة مرة ثالثة.

٣- إن محمدا لم يكن في حاجة إلى شق الصدر وإلى هذه الجراحة القاسية مادام أن الله تعالى قد اختاره للرسالة وأن الله أراد من ذلك العملية الروحية البحتة.

- إن الله عز وجل شاء أن يطهره ظاهرا وباطنا حتى يتأهل للمهمة التي تنتظره وهى الرسالة ولنعلم أن هذه الغدة المستأصلة لا يعلم حقيقتها إلا الله، ولو كانت معلومة لأجرى الإنسان لها عملية جراحية واستأصلها، وفي ذلك إعلان الأمر لرسول الله وهو إعلان إلهى بين أسماع الناس وأبصارهم.

٤- أن هذا الحادث تكرر عدة مرات فما الفائدة من تكرار وقوعه؟

- نقول ما كان في زمن الطفولة والصبا: حتى يتصف بأوصاف الرجولة وينشأ على أكمل الأحوال من العصمة.

- ما كان عند الوحي: ليتلقى ما يوحي إليه بقلب قوى.

- ما كان عند الإسراء: ليتأهب للمناجاة العلوية القدسية.

وخلقت هذه العلقة لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية فخلقت مكملة للخلق الإنساني ونزعها كرامة ربانية يدل على عظيم الرفعة والاعتناء. ولو خلق سليما لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته فأظهره الله كرامة لنبيه ﷺ.

٥- يقال أن السبب في رد محمد إلى أمه لم تكن حكاية الملكين، وإنما خوفها عليه من نصارى الحبشة الذين أرادوا أخذه منها لأنهم علموا أن له شأنًا عظيمًا.

- جاءت رواية ابن إسحاق وبينت أن السبب في الرد هو كلا الأمرين حيث يقول: (مع ما ذكرت لأمه مما أخبرتها عنه) تقصد شق الصدر.

٦- إن كانت حليمة وزوجها قد نبها لشيء أصاب محمدًا ﷺ فلعله نوبة عصبية وهى (الصرع) ومن عوارضه الإغماء والتشنج، ولم يكن لها أن تؤذى صحته لحسن تكوينه.

- لم يثبت لنا شيء أو أمر عن رسول الله ﷺ وذلك بإجماع المؤرخين والمعاصرين لا من قريب ولا من بعيد والمشاهد في حياته نقيض ذلك وكان في تحسن وازدياد كلما كبرت به السن وهو صحيح البدن والرأي ولم يمرض سوى ثلاثة عشر يوما بحمى طارئة، لقى بعدها رسول الله ﷺ ربه.

وبعد:

فهذه هي واقعة شق الصدر التي تعد من الأمور الحسية الممكنة التي لا يحيلها العقل أو العلم، فهى من إرهاصات النبوة (أمر خارق للعادة يحدث على يد عبد محبوب من المولى له مكانة خاصة حيث سيعطى النبوة بعد ذلك) ودلائل اختيار الله للنبي لأمر جلل وخاصة أنها رويت بطرق صحيحة عن كثير من الصحابة، ولا يصح أن نقول أنها أسطورة أو اختراع لأنها اتهام كل خبر بما سبق يقضي على أخبار التاريخ كلها في جميع العصور لا يبقى منها شيء، والنبي ﷺ كراماته ومعجزاته كثيرة وهو في غنى عن هذه الأساطير ولنعلم أن عدم الوصول إلى معرفة السر لا يترتب عليه نفيه في

الواقع والأصل في الكلام الحقيقة، ولا يجوز صرف أي لفظ إلى المجاز إلا إذا كانت هناك دلالات قوية.

وأن حادث شق الصدر الحي ليس خاصا بالنبي ﷺ فقط بل جرى لغيره من الأنبياء وأن محاولة استنكار الحقيقة وتعطيل النصوص إنما يرجع إلى ضعف الإيمان بالله وبنبوة محمد وصدق رسالته، وأن شق الصدر حدث رغم كيد الكائدين وإعراض المعرضين. أمثال المعتزلة والمستشرقين وأن السر عند علام الغيوب وإلا فما أسهل اليقين بكل ما صح نقله سواء عرفت الحكمة والعلة أم لم تعرف.

كيف لأناس يجحدون فضل الله ونعمته على نبيه من شق الصدر وهو اصطفاء له، ويبقى لنا طهارة الباطن كما نعتني بطهارة الظاهر [١].

* * *

(١) انظر فقه السيرة للبوطي، ابن هشام.

الموقف الثانى عشر

(١٢)

حراء جبل ... التحلي

الموقف الثانى عشر:

حراء جبل . . . التحلى

ولما أخذ سنه يدنو نحو الأربعين، نشأ لديه حب للعزلة بين الفترة والأخرى، وحبب الله إليه الاختلاء في غار حراء، وحراء جبل يقع في جانب الشمال الغربي من مكة، ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشرة وتارة أكثر من ذلك إلى شهر، ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه إلا قليلا حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى، ويعود الكرة إلى غار حراء، وهكذا أي أنه جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك.

العبر والعظات:

إن لهذه الخلوة التي حببت إلى قلب رسول الله ﷺ قبل البعثة، دلالة عظيمة جدا، لها أهمية كبرى في حياة المسلمين عامة، والداعين إلى الله بصلاة خاصة.

فهى توضح أن المسلم لا يكمل إسلامه مهما كان متحليا بالفضائل قائما بألوان العبادات، حتى يجمع إلى ذلك ساعات من الخلوة والعزلة يحاسب فيها نفسه، ويراقب الله تعالى، ويفكر في مظاهر الكون، ودلائل ذلك على عظمة الله.

هذا في حق أي مسلم يريد لنفسه الإسلام الصحيح، فكيف بمن يريد أن يضع نفسه بموضع الداعى إلى الله والمرشد إلى الطريق الحق.

وحكمة ذلك: أن للنفس آفات لا يقطع شرهها إلا دواء العزلة عن الناس، ومحاسبتها في نجوة من ضجيج الدنيا ومظاهرها. فالكبر والعجب والحسد والرياء وحب الدنيا، كل ذلك آفات من شأنه أن تتحكم في النفس وتتغلغل إلى أعماق القلب، وتعمل عملها التهديمي

في باطن الإنسان على الرغم مما يتحلى به ظاهره من الأعمال الصالحة والعبادات المبرورة، ورغم ما قد ينشغل به من القيام بشؤون الدعوة والإرشاد وموعظة الناس. وليس لهذه الآفات من دواء إلا أن يختلي صاحبها بين كل فترة وأخرى مع نفسه ليتأمل في حقيقتها ومنشئها ومدى حاجتها إلى عناية الله تعالى وتوفيقه في كل لحظة من لحظات الحياة، ثم ليتأمل في الناس ومدى ضعفهم أمام الخالق عز وجل وفي عدم أي فائدة لمدحهم أو قدحهم، ثم ليتفكر في مظاهر عظمة الله وفي اليوم الآخر وفي الحساب وطوله، وفي عظيم رحمة الله وعظيم عقابه. فعند التفكير الطويل المتكرر في هذه الأمور تتساقط تلك الآفات اللاحقة بالنفس ويحيا القلب بنور العرفان والصفاء. فلا يبقى لعكر الدنيا من سبيل إلى تكدير مرآته [(١)].

وشيء آخر له بالغ الأهمية في حياة المسلمين عامة وأرباب الدعوة خاصة: هو تربية محبة الله عز وجل في القلب، فهو منبع التضحية والجهاد وأساس كل دعوة متأججة صحيحة، ومحبة الله تعالى لا تأتي من مجرد الإيمان العقلي به، فالأمور العقلانية وحدها ما كانت يوما ما لتؤثر في العواطف والقلوب. ولو كان كذلك لكان المستشرقون في مقدمة المؤمنين بالله ورسوله، ولكانت أفئدتهم من أشد الأفئدة حبا لله ورسوله. أو سمعت بأحد من العلماء ضحى بروحه إيمانا منه بقاعدة رياضية أو مسألة من مسائل الجبر؟!

وإنما الوسيلة إلى محبة الله تعالى - بعد الإيمان به - كثرة التفكير في آلائه ونعمه والتأمل في مدى جلاله وعظمته، ثم الإكثار من ذكره سبحانه بالقلب واللسان. وإنما يتم كل ذلك بالخلوة والعزلة والابتعاد عن شواغل الدنيا وضوضائها في فترات متقطعة متكررة

---

(١) السيرة النبوية، الصلابي.

من الزمن.

فإذا قام المسلم بذلك وتهيأ له أداء هذه الوظيفة، نبتت له من ذلك في قلبه محبة إلهية عارمة، تجعله يستصغر كل عظيم، ويحتقر كل مغرية من المغريات، ويستهين بكل إيذاء وعذاب، ويستعلي فوق كل إذلال أو استهزاء، فتلك هي العدة الكبرى التي ينبغي أن يتسلح بها الدعاة إلى الله، وتلك هي العدة التي جهز الله بها حبيبه محمدا ﷺ ليقوم بأعباء الدعوة الإسلامية.

ذلك لأن الدوافع الوجدانية في القلب من خوف ومحبة ورجاء تفعل ما لا يفعله الفهم العقلي المجرد ولقد أجاد الشاطبي رحمه الله حينما فرق في هذه الدوافع بين عامة المسلمين الذين دخلوا في ربقة التكاليف بدافع من عموم إسلامهم وخواصهم الذين دخلو في ربقة هذه التكاليف يسوقهم ما هو أشد من مجرد التعقل و الفهم. يقول:

" فالضرب الأول حاله حال من يعمل بحكم عهد الإسلام و عهد الإيمان من غير زائد، والثاني حاله حال من يعمل بحكم غلبه الخوف والرجاء أو المحبة، فالخوف سوط سائق والرجاء حاد قائد، والمحبة تيار حامل، فالخائف يعمل مع وجود المشقة غير أن الخوف مما هو أشق يحمل على الصبر على ما هو أهون وإن كان شاقا والراضي يعمل مع وجود المشقة أيضا غير أن الرجاء في تمام الراحة يحمل على الصبر في تمام التعب والمحب يعمل ويبذل المجهود شوقا إلى المحبوب فيسهل عليه الصعب ويقرب عليه البعيد وتفنى القوى ولا يرى أنه أوفى بعهد المحبة ولا قام بشكر النعمة ".

واتخاذ الوسائل المختلفة لتحقيق هذه الدوافع الوجدانية في القلب مما أجمع المسلمون على ضرورته وهو ما يسمى بالتصوف عند جمهور العلماء والباحثين، أو بالإحسان عند بعضهم، أو بعلم السلوك

عند البعض الآخر كالإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

والاختلاء الذي كان يمارسه ﷺ قبيل بعثته كان واحدة من هذه الوسائل لتحقيق هذه الدوافع نفسها.

بيد أنه لا ينبغي أن يفهم معنى الخلوة كما شذ البعض ففهموها حسب شذوذهم وهو الانصراف الكلى عن الناس واتخاذ الكهوف والجبال موطنا واعتبار ذلك فضيلة بحد ذاتها.

فذلك مخالف لهديه ﷺ ولما كان عليه عامة أصحابه. إنما المراد هو استحباب اتخاذ الخلوة دواء لإصلاح الحال كما ذكرنا والدواء لا ينبغي أن يؤخذ إلا بقدر، وعند اللزوم، وإلا انقلب إلى داء ينبغي التوقي منه، وإذا رأيت في تراجم الصالحين من استمر على الخلوة والابتعاد عن الناس، فمرد ذلك إلى حالة خاصة به، وليس عمله حجة على الناس.

* * *

بدء الوحـي

روى الإمام البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها تصف كيفية بدء الوحي وتقول:

(أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال:(**اقرأ، قال: " ما أنا بقارئ " قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني قال: اقرأ، فقلت: " ما أنا بقارئ " فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد،**

ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: " ما أنا بقارئ " فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: {ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾} [العلق: ١ - ٤])، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال:(**زملوني! زملوني**) فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر:(**لقد خشيت على نفسي**) فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون

حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ:(**أوَمُخْرِجِيّ هم؟**) قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي).

واختلف في الزمن الذي فتر فيه الوحي فقيل ثلاث سنوات، وقيل أقل من ذلك، والراجح ما رواه البيهقي من أن المدة كانت ستة أشهر.

ثم روى البخاري عن جابر بن عبد الله وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه:(**بينما أن أمشى إذ سمعت صوتا من السماء،**

فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني، زملوني، فأنزل الله عز وجل: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢} [المدثر: ١ - ٢]، إلى قوله: {وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥} [المدثر: ٥])، فحمى الوحى وتواتر [١].

العبر والعظات:

حديث بدء الوحي هذا هو الأساس الذي يترتب عليه جميع حقائق الدين بعقائده وتشريعاته. وفهمه واليقين به هما المدخل الذي لابد منه إلى اليقين بسائر ما جاء به النبي ﷺ من إخبارات غيبية وأوامر تشريعية ذلك أن حقيقة الوحي هي الفيصل الوحيد بين الإنسان الذي يفكر من عنده ويشرع بواسطة رأيه وعقله، والإنسان الذي يبلغ عن ربه دون أن يغير أو ينقص أو يزيد.

من أجل هذا يهتم محترفو التشكيك بالإسلام، بمعالجة موضوع الوحي في حياته، ويبذلون جهدا فكريا شاقا، في تكلف وتمحل، من أجل التلبيس في حقيقته والخلط بينه وبين الإلهام، وحديث النفس، بل

(١) فقه السيرة.

حتى والصرع أيضا. وذلك لعلمهم أن موضوع الوحي هو منبع يقين المسلمين وإيمانهم بما جاء به محمد ﷺ من عند الله، فلئن أتيح تشكيكهم بحقيقته، أمكن تكفيرهم بكل ما قد يتفرع عنه من عقائد وأحكام، وأمكنهم أن يمهدوا لفكرة أن كل ما دعا إليه محمد ﷺ من المبادئ والأحكام التشريعية ليس إلا من تفكيره الذاتي.

من أجل هذه الغاية، أخذ محترفو الغزو الفكري، يحاولون تأويل ظاهرة الوحي وتحريفها عما يرويه لنا المؤرخون وتحدث به صحاح السنة الشريفة، وإبعادها عن حقيقتها الظاهرة، وراح كل منهم يسلك إلى ذلك ما يروق لخياله من فنون التصورات المتكلفة الغريبة.

وغار حراء: يقع شمال شرقي المسجد الحرام في قمة جبل النور، ويقال له أيضا: جبل حراء، وارتفاعه نحو ٦٢١ م من سطح البحر ونحو ٢٨١ م من سفح الجبل. وهو صعب المرتقى والصعود إليه يستغرق نحو ساعة. وكان النبي ﷺ يتعبد فيه قبل البعثة، وهو عبارة عن فجوة بابها نحو الشمال يتوصل إليها بعد المرور من مدخل بين الحجرين يتسع نحو ٦٠ سم وطول الغار نحو ٣ م في مقدمته فتحة طبيعية، وعرض الغار متفاوت أقصاه ١.٣٠ م وارتفاعه ٢ م، ويتسع لشخصين يصليان أحدهما واقف خلف الآخر، وعلى اليمين مصطبة تتسع لشخص يصلى جالسا. وهو الغار الذي جاء فيه جبريل عليه السلام بأول وحى:{ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾} [العلق: ١]، ثم رأى النبي ﷺ جبريل قريبا من جبل حراء، وذات مرة خاطب هذا الجبل قائلا:(**اسكن حراء...**) كما ورد في الأحاديث التالية:

قالت عائشة رضى الله عنها:{ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١} [العلق: ١].

وقال رسول الله ﷺ:**(اورت بحراء شهرا فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى، فلم أر شيئا، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي، فرأيت شيئا فأتيت خديجة فقلت: دثَّروني وصبوا على ماء باردا، قال: فدثَّروني وصبوا على ماءا باردا)**، فنزلت:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ} [المدثر: ١]، وفي رواية:**(إذا هو جبريل جالس على عرش بين السماء والأرض)**.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء فتحرك، فقال رسول الله ﷺ :**(اسكن حراء فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد)**، وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم [(١)].

إذا كان بداية الوحي تنزل على رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو في هذا المكان الصعب المرتفع متأملاً في الكون متعبدًا باحثًا من خالق هذا الكون، وهذا المكان صعب المرتقى، فما بال المساجد تشكوا إلى الله ظلم العباد وهجرها وهي بيوت الله في أرضه!.

* * *

(١) تاريخ مكة، أخبار مكة للفاكهي.

الموقف الثالث عشر

(١٣)

اصدع بما تؤمر

الموقف الثالث عشر:
اصدع بما تؤمر

لقد فشلت محاولات التشويه والحرب الإعلامية، والحجر الفكري الذي كان الكفار يمارسونه على الدعوة الإسلامية في بداية عهدها؛ لأن صوت رسول الله ﷺ كان أقوى من أصواتهم، ووسائله في التبليغ كانت أبلغ من وسائلهم، وثباته على مبدئه السامي، كان أعلى بكثير مما كان يتوقعه أعداؤه، فالرسول ﷺ لم يجلس في بيته، ولم ينزو في زاوية من زوايا المسجد الحرام، ليستخفي بدعوته، وليقي نفسه من سهام أعدائه المسمومة، بل إنه غامر بنفسه، فكان يخرج في مضارب العرب، قبل أن يفدوا مكة، وكان يجهر بتلاوة القرآن في المسجد الحرام، ليسمع من كان في قلبه بقية من حياة، وأثارة من حرية وإباء، فيتسرب نور الهدى إلى مجامع لبه، وسويداء قلبه، وكان من هؤلاء ضماد الأزدي، وعمرو بن عبسة، وأبي ذر الغفاري، والطفيل بن عمرو الدوسي، وحصين والد عمران بن الحصين رضي الله عنهم، وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، على فشل حملات التشويه التي شنتها قريش ضد رسول الله ﷺ، فعلينا أن نعتبر ونستفيد من الدروس والعبر.

ما تعرض له رسول الله ﷺ من الأذى والتعذيب:

لم يفتر المشركون عن أذى رسول الله ﷺ، منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم، وأظهره الله عليهم، ويدل على مبلغ هذا الأذى تلك الآيات الكثيرة التي كانت تتنزل عليه في هذه الفترة تأمره بالصبر، وتدله على وسائله وتنهاه عن الحزن، وتضرب له أمثلة من واقع إخوانه المرسلين،

مثل قوله تعالى:{وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾} [المزمل: ١٠]، وقوله:{فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾} [الإنسان: ٢٤]. وقوله:{وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾} [النمل: ٧٠]. وقوله:{ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾} [فصلت: ٤٣].

وهذه أمثلة تدل على ما تعرض له ﷺ من الإيذاء:

١ - قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب. قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجِئَهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ:(**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا**) [1].

وفي حديث ابن عباس قال: كان النبي يصلي فجاء أبو جهل: فقال: (ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ فزبره فقال: أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثرُ مني، فأنزل الله تعالى:{ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾} [العلق: ١٧ - ١٨]، قال ابن عباس: " لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله " [2].

٢ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه: " بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جَزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسَلاها، فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح، غريب.

فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجدًا، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة عليها السلام - وهي جويرية - فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال:**(اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش)** ثم سمّى:**(اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد)** قال ابن مسعود: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب - قليب بدر - ، ثم قال رسول الله ﷺ:**(وأتبع أصحاب القليب لعنة** [١]**)** [٢].

وقد بينت الروايات الصحيحة الأخرى أن الذي رمى الفرث عليه هو عقبة بن أبي معيط، وأن الذي حرضه هو أبو جهل، وأن المشركين تأثروا لدعوة الرسول، وشق عليهم الأمر؛ لأنهم يرون أن الدعوة بمكة مستجابة.

٣ - اجتماع الملأ من قريش وضربهم الرسول ﷺ: اجتمع أشراف قريش يوما في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفه أحلامنا وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا - لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم - فيقول:**(نعم، أنا الذي أقول ذلك)**، ثم أخذ رجل منهم بمجمع ردائه، فقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول: ربي الله.

---

(١) القليب: البئر المفتوح.
(٢) البخاري، ومسلم.

٤ - كان أبو لهب عم النبي ﷺ من أشد الناس عداوة له، وكذلك كانت امرأته أم جميل من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وكانت تسعى بالإفساد بينه وبين الناس بالنميمة، وتضع الشوك في طريقه، والقذر على بابه فلا عجب، أن نزل فيهما قول الله تعالى:{تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} [المسد: ١ - ٥]، فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه. ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال:(**لقد أخذ الله ببصرها عني**)، وكانت تنشد:

مذمم أبينا.. ودينه قلينا.. وأمره عصينا..

وكان رسول الله ﷺ يفرح؛ لأن المشركين يسبون مذممًا يقول:(**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذممًا ويلعنون مذممًا وأنا محمد**) [١].

وقد بلغ من أمر أبي لهب أنه كان يتبع رسول الله ﷺ في الأسواق والمجامع، ومواسم الحج ويكذبه.

هذا بعض ما لاقاه رسول الله ﷺ من أذية المشركين، وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكية. وكان رسول الله ﷺ يذكر ما لاقاه من أذى قريش قبل أن ينال الأذى أحدًا من أتباعه يقول:(**لقد أخفت في الله عز وجل وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من**

(١) فتح الباري.

بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال).

ومع ما له ﷺ من عظيم القدر ومنتهى الشرف، إلا أنه قد حظي من البلاء بالحِمْل الثقيل، والعناء الطويل، منذ أول يوم صدع فيه بالدعوة، ولقد لقي النبي ﷺ من سفهاء قريش أذى كثيرًا، فكان إذا مر على مجالسهم بمكة استهزؤوا به، وقالوا ساخرين: هذا ابن أبي كبشة [١] يُكلم من السماء، وكان أحدهم يمر على الرسول ﷺ فيقول له ساخرًا: أما كُلمت اليوم من السماء؟ [٢].

ولم يقتصر الأمر على مجرد السخرية والاستهزاء والإيذاء النفسي، بل تعداه إلى الإيذاء البدني، بل قد وصل الأمر إلى أن يبصق عدو الله أمية بن خلف في وجه النبي ﷺ، وحتى بعد هجرته عليه السلام إلى المدينة لم تتوقف حدة الابتلاء والأذى، بل أخذت خطًّا جديدا بظهور أعداء جدد، فبعد أن كانت العداوة تكاد تكون مقصورة على قريش بمكة، صار له ﷺ أعداء من المنافقين المجاورين بالمدينة، ومن اليهود والفرس والروم، وأحلافهم، وبعد أن كان الأذى بمكة شتمًا وسخرية، وحصارًا، وضربًا، صار مواجهة عسكرية مسلحة، حامية الوطيس، فيها كر وفر وضرب وطعن، فكان ذلك بلاء في الأموال والأنفس على السواء، وهكذا كانت فترة رسالته ﷺ وحياته سلسلة متصلة من المحن والابتلاء، فما وهن لما أصابه في سبيل الله، بل صبر واحتسب حتى لقي ربه.

لقد واجه الرسول ﷺ من الفتن والأذى والمحن ما لا يخطر على بال، في مواقف متعددة، وكان ذلك على قدر الرسالة التي حملها،

---

(١) والد الرسول من الرضاع.
(٢) الروض الأنف.

ولذلك استحق المقام المحمود، والمنزلة الرفيعة عند ربه، وقد صبر على ما أصابه، إشفاقًا على قومه أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم الماضية من العذاب، وليكون قدوة للدعاة والمصلحين، فإذا كان الاعتداء الأثيم، قد نال رسول الله ﷺ فلم يعد هناك أحد، لكرامته، هو أكبر من الابتلاء والمحنة، وتلك سنة الله في الدعوات. فعن أبي سعيد الخدري قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاءً؟ قال:**(الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)** [١].

إذا كان هذا جزء مما أصاب محمد صلي الله عليه وسلم عند أمره بالجهر بالدعوة في جو مملوء بالكفر والطغيان، فما بالنا ونحن في بلاد الإسلام، نداهن ونرائي ونخفي الحق من أجل ..؟!!!.

* * *

(١) حديث صحيح.

الموقف الرابع عشر

(١٤)

يوم المساومة وحرب الأعصاب

الموقف الرابع عشر:
يوم المساومة وحرب الأعصاب

تدل كلمة المساومة لغة على التفاوض في البيع والابتياع ويراد بهذه المساومة ألا يغالي البائع في السلعة، أو يغبن المشترى في ثمنها، وقد أطلقت هذه الكلمة على محاولات الشرك السلمية في مكة للحيلولة بين محمد وما يدعو إليه، وذلك أن النبي الكريم بعد أن أمره الله بأن يصدع بكلمة الحق لم يجد من صناديد الشرك إلا استهزاء به وإعراضا عنه، ونفورا منه، وثورة عليه وعلى الذين آمنوا به ولكن باءت كل أساليب الاضطهاد والعنت التي لجأ إليها المشركون بالخسران، بل إنها زادت المؤمنين صلابة وقوة واعتصاما بما آمنوا به.

وفكر المشركون في الأمر، وبدا لهم أن لغة الاضطهاد والقهر والتعذيب لم تجد شيئا، وأن الذين يتبعون محمدا يزدادون يوما بعد يوم، وآثروا أن يأخذوا بلغة المساومة والاحتواء علهم ينجحون في وقف هذا التيار الجديد، وقد تعددت محاولات المساومة وتنوعت أساليبها، وهى وإن لم تقع في يوم واحد وإنما تكرر وقوعها في عدة أيام، أنه جميعها تمثل موقفا واحدا عول على صنوف شتى من الوسائل، ولهذا تعد من حيث الغاية يوما واحدا.

لقد مشى أولا بعض سادة قريش إلى أبى طالب الذي كان يحمى ابن أخيه من صَلَفٍ وغطرسة المشركين، وكلموه فيه ومما قالوا له: أن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا، وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافة فنكفيكه.

ولم يستجب أبو طالب لسادة قريش، وإن كان قد تلطف معهم في القول وردهم ردا رقيقا فانصرفوا عنه وهم يحسبون أنه سيقف دون محمد وما يدعو إليه، ولكن الرسول ﷺ مضى في طريقه يبلغ رسالة ربه غير عابئ بما تضعه الجاهلية من أشواك في طريقه وطريق الذين اهتدوا بدعوته.

وذهب أشراف قريش مرة ثانية إلى أبى طالب واتسمت لهجتهم في الحديث معه هذه المرة بالحرب إن لم يمنع ابن أخيه مما يقوم به.

واحتار الشيخ الوقور بين مشاعره نحو ابن أخيه وإحساسه بالانتماء إلى قومه، ولم يجد خلاصا مما هو فيه سوى أن يبعث إلى محمد وينهى إليه ما قاله زعماء قريش، ثم أردف هذا بقوله: (ابق على نفسك وعلى ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق). وما كاد أبو طالب يلفظ هذه العبارة في هدوء يشوبه القلق حتى استولى على الرسول ﷺ إحساس بأن عمه قد تخلى عنه ولم يعد قادرا على نصرته، ولكن هذا الإحساس بدده الإيمان الذي لا يغلب فقال الرسول ﷺ لعمه تلك المقولة التي أصبحت شعارا للفداء وثبات اليقين:(**يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته)** [١].

ويروى أن الرسول ﷺ بعد أن قال هذا بكى ثم قام منصرفا، وكان الشيخ الوقور لا يتوقع من ابن أخيه ما كان منه، غير أنه حين فوجئ بهذا الرد الحاسم، وحين أبصر بتلك القاطرات الطاهرة تسيل على خديه غلبت على أبى طالب مشاعر الأبوة الحانية فنادى محمدا وقال: اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا وأنشد:

(١) سيرة ابن هشام، السيرة النبوية لابن كثير.

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ::: حتى أوسد في التراب دفينا

وعرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان ابن أخيه، وأنه لا يحول بينه وبين تسفيه أحلام أهل مكة والنيل من آلهتهم، وهنا قرر قادة الشرك أن يختاروا فتى من أجمل فتيان قريش هو عمارة بن الوليد، وذهبوا به إلى أبى طالب وأعرضوا عليه أن يتخذوا عمارة ولدا له ويسلم إليهم ابن أخيه ليفتكوا به، وجاء رد أبى طالب معبرا أصدق تعبير عن سخافة ما عرضه سادة قريش عليه، فقد قال لهم: والله لبئس ما تسومونني أن تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه هذا والله ما لا يكون أبدا.

وآيست قريش من أبى طالب وأيقنت أنه لا يتخلى عن ابن أخيه، وأن عليه لكي تحمى وحدتها وآلهتها أن تقوم بعمل جديد ظنت أنه سيحقق ما تحرص عليه وهو القضاء على محمد ودعوته.

وكان هذا العمل الذي ظنت قريش أن سيضع حدا لهذا الداعي الجديد هو الإمعان في تعذيب من آمن به واتبع رسالته وصبأ عن دين آبائه.

وما حقق هذا العمل لقريش ما ترجوه وتحرص عليه وأفزعها أن بعض رجالات مكة يؤمن بالرسالة الخاتمة، لأن هذا يعنى أن قوة محمد تنمو، وأنه لو ترك هكذا فإن يوما لابد آت فيه تفقد قريش كل ما تزود عنه من معبوداتها وأعرافها وتراث آبائها.

وفكر بعض سادة قريش أن يذهب إلى محمد يكلمه ويعرض عليه ما رأى أنه قد يكفه عن المضي في طريقه، وأثيرت الفكرة في نادى قريش، فرحب المشركون بها لأن التعذيب لم ينجح في وقف التيار عن اندفاعه، وقام عتبة بن ربيعة، وقال للرسول بعد أن أشار إلى دعوته التي فرقت كلمة قريش وسفهت أحلامها وعابت آلهتها: يا

بن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لانقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى فيه.

وقال الرسول ﷺ بعد أن سمع هذا الذي عرضه عليه عتبة: فاسمع منى، وقال عتبة: افعل. فتلا محمد من أول سورة السجدة إلى أن بلغ آية السجدة فسجد، ثم قال: سمعت يا أبا الوليد ما سمعت وأنت ذاك.. وانصرف عتبة إلى حابه مأخوذا بروعة القرآن وسمو فصاحته [١].

وفي محاولة من المشركين لاحتواء الرسول أو مساومته عرضوا عليه أن يعبدوا إلهه سنة على أن يعبد آلهتهم سنة فنزلت سورة الكافرون، تعلن في جلاء الحد الفاصل بين الإيمان والكفر وأنه لا التقاء بينهما بحال من الأحوال [٢].

وهكذا ثبت رسول الله صلي الله عليه وسلم بالرغم من هذه المساومات ولأنه يعلم أنه دين الله، وتبقى المساومات في حياتنا، والتنازلات عن كثير من دين الله من أجل مصلحة دنيوية وعرض زائل من أعراض الدنيا؟!.

* * *

(١) حياة محمد.
(٢) سبل الهدى والرشاد، أسباب النزول للواحدي.

المو قف الخامس عشر

(١٥)

الحصار الاقتصادي الغاشم

الموقف الخامس عشر:
الحصار الاقتصادي الغاشم

ورد بأسانيد مختلفة عن موسى بن عقبة، عن ابن إسحاق، وعن غيرهما، أن كفار قريش أجمعوا أمرهم على قتل رسول الله ﷺ، وكلموا في ذلك بنى هاشم وبنى المطلب، ولكنهم أبوا تسليمه ﷺ إليهم.

فلما عجزت قريش عن قتله ﷺ أجمعوا على منابذته ومنابذة من معه من المسلمين ومن يحميه من بنى هاشم وبنى المطلب، فكتبوا بذلك كتابا تعاقدوا فيه على ألا يناكحوهم، ولايبايعوهم، ولايدعوا سببا من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحا، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلم بنو المطلب رسول الله ﷺ إليهم للقتل، وعلقوا الكتاب في جوف الكعبة.

والتزم كفار قريش بهذا الكتاب ثلاث سنوات، بدءا من المحرم سنة سبع من البعثة إلى السنة العاشرة منها، وقيل بل استمر ذلك سنتين فقط.

ورواية موسى بن عقبة تدل على أن ذلك كان قبل أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وإنما أمرهم بها أثناء هذا الحصار. أما رواية ابن إسحاق فتدل على أن كتابة الصحيفة كانت بعد هجرة أصحابه ﷺ إلى الحبشة وبعد إسلام عمر.

وحوصر بنو هاشم وبنو المطلب ومن معهم من المسلمين، ومعهم رسول الله ﷺ في شعب بنى المطلب، وإنما مكة شعاب متفرقة، واجتمع فيه من بنى هاشم وبنى المطلب المسلمون والكافرون، أما المسلمون فتدينا وأما الكافرون فحمية، إلا ما كان من أبى لهب، عبد العزى بن عبد المطلب، فإنه خرج إلى قريش فظاهر النبي ﷺ وأصحابه.

فجهد النبي ﷺ والمسلمون جهدا شديدا في هذه الأعوام الثلاثة واشتد عليهم البلاء، وفي الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر. وذكر السهيلي انهم كانوا إذا قدمت العير مكة، يأتي أحد أصحاب رسول الله ﷺ إلى السوق ليشترى شيئا من الطعام يقتاته لأهله فيقوم أبو لهب فيقول: (يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئا معكم) فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافا، حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يده شيء يغللهم به.

فلما كان على رأس ثلاث سنين من بدء هذا الحصار، تلاوم قوم من بنى قصي، فأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه، وأرسل الله على صحيفتهم التي كتب فيها نص المعاهدة الأرضة، فأتت على معظم ما فيها من ميثاق وعهد، ولم يسلم من ذلك إلا الكلمات التي ذكر فيها ذكر الله عز وجل.

وقد أخبر بذلك رسول الله ﷺ عمه أبا طالب، فقال له أبو طالب: (أربك أخبرك بذلك؟ قال: نعم، فمضى في عصابة من قومه إلى قريش، فطلب منهم أن يأتوه بالصحيفة موهما إياهم أنه نازل على شروطهم فجاؤوا بها وهى مطوية، إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني قط، أن الله تعالى أرسل على صحيفتكم التي كتبتم الأرضة فأتت على كل ما فيها من جور وقطيعة رحم، فإن كان الحديث كما يقول فأفيقوا وارجعوا عن سوء رأيكم، فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلا دفعنا إليكم صاحبنا ففعلتم به ما تشاؤون.

فقالوا: قد رضينا بالذي تقول. ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ.

فقالوا: هذا سحر ابن أخيك وزادهم ذلك بغيا وعدوانا.

ثم إن خمسة من رؤساء المشركين من قريش، مشوا في هذه الصحيفة وإنهاء هذا الحصار، وهم: هشام بن عمرو بن الحارث، وزهير بن أمية، والمطعم بن عدى، وأبو البخترى بن هشام، وزمعة بن الأسود.

وكان أول من سعى إلى نقضها بصريح الدعوة زهير بن أمية، أقبل على الناس عند الكعبة فقال: (يا أهل مكة، أنأكل الطعام، ونلبس الثياب وبنو هاشم وبنو المطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاع منهم؟.. والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة).

ثم قال بقية الخمسة نحوا من هذا الكلام. ثم قام المطعم بن عدى إلى الصحيفة فمزقها، ثم انطلق هؤلاء الخمسة، ومعهم جماعة إلى بنى هاشم وبنى المطلب ومن معهم من المسلمين فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم.

العبر والعظات:

هذه القطعة الظالمة، تصور قمة الشدة التي لقيها النبي ﷺ وأصحابه طوال ثلاثة أعوام.

وقد رأيت أن المشركين من من بنى هاشم وبنى المطلب، شاركوا المسلمين في تحملها، ولم يرضوا أن يتخلوا عن رسول الله ﷺ.

وليس لنا من حديث عن هؤلاء المشركين وسبب موقفهم هذا فقد كان الذي دفعهم إليه حمية القرابة والرحم، وإباء الذل الذي كان يتلبس بهم لو أنهم خلوا بين محمد ﷺ ومشركي قريش من غير بنى هاشم وبنى المطلب يقتلونه ويفتكون به، بقطع النظر عن العقيدة والدين.

فقد آثروا إذن أن يجمعوا بين رغبتين في صدورهم:

الأولى: الثبات على الشرك والاستكبار على الحق الذي جاءهم به محمد ﷺ.

الثانية: الانصياع للحمية التي تدعو إلى حماية القريب من بطشه الغريب وظلمه، بحق كان أو بباطل.

أما المسلمون، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ فإنما صبرهم على ذلك الانصياع لأمر الله وإيثار الآخرة على الدنيا، وهوان الدنيا عندهم في جنب مرضاة الله عز وجل، وهذا ما يهمنا أن نبحث فيه.

قد تسمع بعض المبطلين من محترفي الغزو الفكري يقولون:

(إن عصبية بنى هاشم وبنى المطلب، كانت تكمن خلف دعوة محمد ﷺ وكانت تحوطها بالرعاية والحفظ**!** والدليل على ذلك موقفهم السلبي من مشركي قريش في مقاطعتهم للمسلمين).

وإنها لمغالطة مكشوفة، لا يتماسك عليها حجاب أي منطق ولو كان صوريا.

ذلك لأن من الطبيعي جدا أن تقود الحمية الجاهلية بنى هاشم وبنى المطلب عن حياة ابن عم لهم، عندما تتهددها يد غريبة، ويدنو إليها بالسوء شخص دخيل.

والحمية الجاهلية إذ تدفع ذوى القرابة إلى مثل هذا التعصب، لا تنظر إلى مبدأ ولا تتأثر في ذلك بحق أو بباطل، وإنما هي العصبية ولا شيء غير العصبية.

ولذلك أمكن أن يجتمع في ذوى قرباه ﷺ صفتان متناقضتان بحسب الظاهر، الاستكبار على دعوته، والانتصار له ضد سائر المشركين من قريش.

ومع ذلك فأي فائدة حققوها للنبي ﷺ من وراء اعتصامهم معه؟ لقد أوذوا كما أوذي هو وأصحابه، ومضت قريش في قطيعتها للمسلمين بالضراوة والشراسة اللتين أرادتهما دون أن يخفف بنو هاشم وبنو المطلب من غلوائهما شيئا.

والمهم أن تعلم بأن حماية أقارب رسول الله ﷺ له، لم تكن حماية للرسالة التي بعث بها، وإنما كان حماية لشخصه من الغريب، وإن أمكن أن تستغل هذه الحماية من قبل المسلمين، وسيلة من وسائل الجهاد والتغلب على الكافرين والرد لمكائدهم وعدوانهم، فأنعم بذلك من جهد مشكور، وسبيل ينتبهون إليها.

أما رسول الله ﷺ ومعه أصحابه المؤمنون، فما الذي كان يمسكهم على هذا الضيق الخانق؟... وأي غاية كانوا يتأملونها من وراء هذا الثبات على الشدة؟..

بماذا يجيب على هذا السؤال، أولئك الذين يتأولون رسالة محمد ﷺ وإيمان أصحابه بها على أنها ثورة يسار ضد يمين أي ثورة الفقراء المضطهدين ضد الأغنياء المترفين؟

تصور هذه السلسلة من حلقات الإيذاء والتعذيب، لرسول الله ﷺ والمسلمين، ثم أجب على ضوئها، كيف يستقيم أن تكون دعوة الإسلام ثورة اقتصادية ألهبها الجوع وقادها الحقد على تجار مكة وأرباب الفعاليات الاقتصادية فيها؟...

لقد عرض المشركون على محمد ﷺ، على أن يتخلى عن الدعوة إلى الإسلام، فلماذا لم يرض عليه الصلاة والسلام بذلك؟ ولماذا لم يثر عليه أصحابه ولم يضغطوا عليه - وإن غايتهم الشبع بعد الجوع - كى يقبل بعرض قريش؟ وهل يطمع أصحاب الثورة اليسارية بشيء أكثر من الحكم يكون في أيديهم والمال في جيوبهم؟

ولقد قوطع محمد ﷺ ومعه أصحابه المسلمون عن سبيل كل معايشة اقتصادية واجتماعية مع بنى قومه، فلم تترك سلعة تتسلل إلى أيديهم، ولم يترك طعام يدخل إلى بيوتهم، حتى راحوا يأكلون ورق الشجر، وهم على ذلك صابرون، محدقون برسولهم ﷺ، أفهكذا يصنع من تعتلج وراء صدره الثورة من أجل لقمة العيش؟!..

وعندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وهاجر إليها من قبله ومن بعده أصحابه، تركوا المال والأرض والممتلكات المختلفة واستقبلوا بوجوههم شطر المدينة المنورة، وقد تجردوا عن كل ما يتعلق به الطامعون في المال، لا يبتغون عن إيمانهم بالله بديلا، ولا يقيمون وزنا لدنيا فاتتهم ولملك أدبر عنهم، أفهذا هو الدليل على أنها ثورة يسارية قامت من أجل لقمة طعام؟!...

قد يكون دليل هؤلاء الناس على ما يتصورون، ملاحظة الأمرين التاليين:

الأول: أن الجماعة الأولى من أصحاب محمد ﷺ في مكة، كانت على الأغلب من الفقراء والموالى والمضطهدين، وهو يدل على أنهم ينفسون باتباعهم محمد ﷺ عن شيء من كربهم، وأنهم كانوا يتأملون مستقبلا اقتصاديا أفضل لأنفسهم في ظل الدين الجديد.

الثاني: أن هؤلاء الأصحاب، ما لبثوا بعد حين أن فتحت عليهم آفاق الدنيا، وأقبل إليهم الثراء والمال، وهو دليل على أن خطة الرسول ﷺ كانت ترمى إلى تحقيق هذه الغاية.

وأنت إذا تأملت في استدلالهم على ما يتصورونه، بهاتين الملاحظتين، أدركت كم هو نصيب الخيال والوهم من عقولهم ومنهج تفكيرهم.

أما أن الجماعة الأولى من أصحابه ﷺ كانت على الأغلب من الفقراء والموالى، فنعم، ولكن ليس بين هذه الحقيقة وذلك الوهم أي علاقة أونسب. إن شريعة تقضى بإرساء ميدان العدالة بين الناس، وبالضرب على يد كل ظالم وطاغية ومستكبر، من المسلم به أن يعرض عنها بل أن يحاربها أولئك الذين استمرؤوا حياة البغي والظلم، لأنها تحملهم المغارم أكثر مما تقدم إليهم المغانم، كما أن من المسلم به أن يرحب بها كل مستضعف مظلوم، بل كل إنسان ليس له في تجارة البغي والاستغلال نصيب؛ لأنها تقدم لهم المغانم أكثر مما تحملهم المغارم، أو لأنهم على أقل تقدير ليست لهم مع الناس مشكلات يجعلهم يستثقلون تبعاتها وتكاليفها.

إن معظم من كان حول رسول ﷺ، كان مستيقنا أنه على حق وأنه نبى مرسل، ولكن أرباب الزعامة وعشاق العظمة والسيطرة، وجدوا من طبيعتهم وظروفهم ما أصبح عائقا لهم.

- إن مشركي بني هاشم وبني المطلب تضامنوا مع رسول الله ﷺ وحموه كأثر من أعراف الجاهلية، ومن هنا ومن غيره نأخذ أنه يسع المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدعوة، على أن يكون ذلك مبنيًّا على فتوى صحيحة من أهلها.

- إن حقوق الإنسان في عصرنا ضمان للمسلم، والحرية الدينية في كثير من البلدان يستفاد منها، وقوانين كثيرة من أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصًا وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك وغيره من خلال موازنات دقيقة.

- من المهم أن تعلم بأن حماية أقارب رسول الله ﷺ له، لم تكن حماية للرسالة التي بعث بها، وإنما كانت لشخصه من الغريب، وإذا أمكن أن تستغل هذه الحماية من قبل المسلمين كوسيلة من وسائل الجهاد والتغلب على الكافرين والرد لمكائدهم وعدوانهم فأنعم بذلك

من جهد مشكور وسبيل ينتبهون إليها [١].

- انتصر أبو طالب في غزو المجتمع القرشي بقصائده الضخمة، التي هزت كيانه هزًّا وتحرك لنقض الصحيفة من ذكرنا من قبل، أولئك الخمسة الذين يمتون بصلة قرابة أو رحم لبني هاشم، وبني المطلب واستطاعوا أن يرفعوا هذا الظلام، وهذا الحيف عن المسلمين وأنصارهم وحلفائهم وخططوا له ونجحوا فيه وفي هذا الموقف إشارة إلى أن كثيرًا من النفوس، والتي تبدو في ظاهر الأمر من أعمدة الحكم الجاهلي، قد تملك في أعماقها رفضًا لهذا الظلم والبغي، وتستغل الفرصة المناسبة لإزاحته، وعلى أبناء المسلمين أن يهتموا بهذه الشرائح، وينفذوا إلى أعماقها، وتوضح لهم حقيقة القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وتبين لها طبيعة العداء بين الإسلام واليهود والصليبيين والعلمانية، فقد يستفاد منهم في خدمة الإسلام [٢].

- وظاهرة أبي لهب تستحق الدراسة والعناية؛ لأنها تتكرر في التاريخ الإسلامي، فقد يجد الدعاة من أقرب حلفائهم من يقلب لهم ظهر المجن، ويبالغ في إيذاء الدعاة، وحربهم أكثر بكثير يلقونه من خصومهم الألداء الأشداء.

- كانت تعليمات الرسول ﷺ لأفراد المسلمين ألاَّ يواجهوا العدو، وأن يضبطوا أعصابهم، فلا يشعلوا فتيل المعركة، أو يكونوا وقودها، وإن أعظم تربية في هذه المرحلة هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى، دون مقاومة. حمزة وعمر، وأبو بكر وعثمان، وغيرهم رضي الله عنهم، سمعوا وأطاعوا، فلقوا كل هذا الأذى وهذا الحقد، وهذا الظلم، فكفوا أيديهم، وصبروا ليس على حادثة واحدة

(١) فقه السيرة للبوطي.
(٢) التحالف السياسي، للغضبان.

فقط، أو يومًا واحدًا فقط بل ثلاث سنين عجاف، تحترق أعصابهم ولا يسمح لهم برمية سهم أو شجة رأس.

- أثبتت الأحداث عظمة الصف المؤمن، في التزامه بأوامر قائده، وبعده عن التصرفات الطائشة، فلم يكن شيء أسهل من اغتيال أبي جهل، وإشعال معركة غير مدروسة لا يعلم إلا الله مداها، وغير متكافئة.

- كانت الدعوة الإسلامية تحقق انتصارات رائعة في الحبشة، وفي نجران، وفي أزد شنوءة، وفي دَوْس، وفي غفار، وكانت تتم في خط واضح، سيكون سندًا للإسلام والمسلمين ومراكز قوى يمكن أن تتحرك في اللحظة الحاسمة، وامتدادات للدعوة، تتجاوز حدود مكة الصلدة المستعصية.

- كانت هذه السنوات الثلاث للجيل الرائد، زادًا عظيمًا في البناء والتربية، حيث ساهم بعضه في تحمل آلام الجوع والخوف، والصبر على الابتلاء، وضبط الأعصاب، والضغط على النفوس والقلوب، ولجم العواطف عن الانفجار (١).

- كانت بعض الشخصيات في الصف المشرك، تبني في داخلها بالتربية النبوية، وتتأثر بعظمة شخصية النبي ﷺ، وتتفاعل في أعماقها مع المبادئ التي يقدمها الدين الجديد، لكن سيطرة الملأ وسطوة الكبراء، كانت تحول دون إبراز هذا التفاعل وهذا الحب وهذه التربية، وختام قصة الصحيفة تقدم لنا أجلى بيان عن ذلك.

- قيام الحجج الدامغة والبراهين الساطعة، والمعجزات الخارقة لا يؤثر في أصحاب الهوى وعبدة المصالح والمنافع؛ لأنهم يلغون عقولهم عن التدبر، ويصمون آذانهم عن سماع الحق، ويغمضون أعينهم عن النظر والتأمل والاهتداء إلى الحق بعد قيام الأدلة عليه، فلقد أخبرهم أبو طالب بما اخبر به الرسول ﷺ بما حدث للصحيفة من أكل الأرضة لها

(١) فقه السيرة، المنهج الحركي.

وبقاء اسم الله فقط (باسمك اللهم) ورأوا ذلك بأم أعينهم فما آمن منهم أحد، إنه الهوى الذي يُغشي عن الحق، ويصم الآذان عن سماعه.

- كانت حادثة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية سببًا في خدمة الدعوة والدعاية لها بين قبائل العرب، فقد ذاع الخبر في كل القبائل العربية من خلال موسم الحج، ولفت أنظار جميع الجزيرة العربية إلى هذه الدعوة التي يتحمل صاحبها وأصحابه الجوع والعطش والعزلة لكل هذا الوقت، أثار ذلك في نفوسهم أن هذه الدعوة حق، ولولا ذلك لما تحمل صاحب الرسالة وأصحابه كل هذا الأذى والعذاب.

- أثار هذا الحصار سخط العرب على كفار مكة لقسوتهم على بني هاشم وبني المطلب، كما أثار عطفهم على النبي ﷺ وأصحابه، فما أن انفك الحصار حتى أقبل الناس على الإسلام، وحتى ذاع أمر هذه الدعوة وتردد صداها في كل بلاد العرب، وهكذا ارتد سلاح الحصار الاقتصادي على أصحابه، وكان عاملاً قويًّا من عوامل انتشار الدعوة الإسلامية عكس ما أراد زعماء الشرك تمامًا.

- كان لوقوف بني هاشم وبني المطلب مع رسول الله وتحملهم معه الحصار الاقتصادي والاجتماعي أثر في الفقه الإسلامي، حيث إن سهم ذوي القربى من الخمس يعطى لبني هاشم وبني المطلب، ويوضح ابن كثير هذا الحكم لدى تفسيره قوله تعالى:{وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾} [الأنفال: ٤١].

فيقول: «وأما سهم ذوي القربى، فإنه يصرف إلى بني هاشم، وبني المطلب؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية، وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضبًا لرسول الله ﷺ وحماية لهم، مسلمهم طاعة لله ورسوله وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب، وأما بنو عبد شمس، وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمهم، فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابذوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول ﷺ، ولهذا كان ذم أبي طالب لهم في قصيدته اللامية أشد من غيرهم لشدة قربهم..

وفي بعض الروايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام " وهذا قول جمهور العلماء إنهم بنو هاشم وبنو المطلب " (١).

وبعد حصار دام وقتًا طويلاً يأكلون فيه أوراق الشجر، ويتضاغون من شدة الجوع، ونحن مع هذا النعيم نتودد لأهل الكفر ولا نغار على ديننا!!.

* * *

(١) تفسير ابن كثير.

الموقف السادس عشر

(١٦)

عـام الحـزن

الموقف السادس عشر:
عام الحزن

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يفقد النبي ﷺ في عام واحد زوجه السيدة خديجة بنت خويلد وعمه أبا طالب، وذلك في العام العاشر من البعثة النبوية، فصدم النبي ﷺ بهاتين المصيبتين التي اهتزت لهما نفسه، وذلك لأنه فقد من حوله من كان في الظاهر حاميا له ومؤنسا، كما نكب في حياته العامة والخاصة، لأنه فقد بموتهما نصيرين عزيزين طالما شدا أزره، وفي هذا يقول النبي ﷺ:(**اجتمعت على في هذه الأيام مصيبتان لا أدرى أنا بأيهما أشد حزنا)** يعنى موت السيدة خديجة وأبا طالب، فقد أحدث موتهما فراغا في الدعوة الإسلامية، وكان فاتحة عهد جديد من المتاعب والأهوال والصعاب أبلغ مما سبق، وزالت تلك الحصانة التي كان يستمدها النبي ﷺ من منزلة أبى طالب والسيدة خديجة في قريش، ووقف وحيدا لا يشد أزره إلا تلك الحفنة المؤمنة من هؤلاء الرجال المؤمنين، فلا غرابة إذن أن أصبح بقاؤه في مكة محفوفا بالمكاره، لذلك سمى هذا العام بعام الحزن لشده ما كابده من الشدائد في سبيل الدعوة، ولم يكن سبب تسمية هذا العام بعام الحزن لمجرد فقد النبي ﷺ لعمه أبى طالب وزوجه خديجة رضى الله عنها، واستوحاشه لفقدهما فقط، بل بجانب ذلك ما أعقب وفاتهما من انغلاق معظم أبواب الدعوة الإسلامية في وجهه.

فأما بالنسبة للسيدة خديجة فهى نعمة من نعم الله العظيمة على النبي ﷺ وذلك لأنها ساندته بما تواليه من حبها وبرها، ومن رقة نفسها وطهارة قلبها وقوة إيمانها، كما آزرته في أحرج الأوقات، وهونت عليه كل شئ، وأزالت من نفسها كل خشية، فكان بحق ملك رحمة يرى النبي ﷺ في عينيها وعلى ثغرها من معاني الإيمان به ما يزيد، إيمانا بنفسه وبذلك عاونته على إبلاغ الرسالة، وشاركته مغارم

الجهاد المر وواسته بنفسها ومالها، وحنت عليه ساعة قلق، وكانت نسمة سلام وبر، رطبت جبينه المتصبب من آثار الوحي، وبقيت ربع قرن تحترم قبل الرسالة تأمله، وعزلته وشمائله، وتتحمل بعد الرسالة، كيد الخصوم وآلام الحصار ومتاعب الدعوة، وماتت والرسول ﷺ في الخمسين من عمره، وهى تجاوز الخامسة والستين، وقد أخلص الرسول ﷺ لذكراها طوال حياته، وكانت وفاتها قبل أبى طالب بخمس وثلاثين ليلة، فرضى الله عنها وأرضاها، وجعل الجنة منقلبها ومثواها في الفردوس الأعلى مع النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، ومما يدل على عظم فضلها ومنزلتها عند الله عز وجل، أن النبي ﷺ بشرها ببيت في الجنة من قصب [١] لا صخب فيه ولا نصب، لأنها حازت قصب السبق إلى الإيمان، كما أنها لم ترفع صوتها على النبي ﷺ، ولم تتعبه يوما من الدهر، فلم تصخب عليه يوما، ولا آذته أبدا [٢].

أما أبو طالب فقد حزن النبي ﷺ لموته حزنا شديدا، لأنه كان الحصن الذي تحتمى فيه الدعوة من هجمات قريش وسفهائها، والملاذ الذي يلجأ إليه النبي عندما تعصف به الأهوال والمحن، فسخر جاهه وسلطانه في الذود عن ابن أخيه، وكف العوادي عن أن تناله، لذلك أصبحت قريش بعد وفاته، لا تهاب في النبي ﷺ أحدا بعده، فقد روى أن النبي ﷺ قال:**(ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب)** [٣] وذلك لأن النفر الذين كانوا يجاورون النبي ﷺ قد تجرؤوا عليه فزادوا في إيذائهم في صلاته وطعامه وغيرهما لدرجة أن النبي ﷺ دعا على قريش بسبب مبالغتها في العنت والاضطهاد له

(١) يعني: قصب اللؤلؤ.
(٢) قيل توفيت بعده.
(٣) السيرة النبوية لابن كثير.

بعد وفاه عمه وفي الحقيقة أن المرء ليحار في أمر أبى طالب وبقدر ما ينحني إعجابا لنبله في كفالة النبي ﷺ، ولبطولته في الدفاع عنه حين نبئ، وحين صدع بأمر ربه، وأنذر عشيرته الأقربين، فالبرغم من تقدير ذلك إلا أنه يستغرب المصير الذي ختم حياته به، حيث جعل يصرح قبل وفاته بموته على ملة الأشياخ من أجداده، وذلك على الرغم من حمايته للنبي ﷺ، ونصرته والدفاع عنه بكل ما أوتى من قوة، فإنه لم يسلم، ومات كافرا، ولم يقل بإسلامه إلا غلاة الشيعة، ولا عجب إذا نصب أبو طالب نفسه لشد أزر النبي ﷺ، فقد كانت العصبية تحتم عليه هذا، وإنما العجب في عدم إسلامه مع ما قام به من خدمات جليلة في شد أزر النبي ﷺ، وما شاهده من مواقف الرسول ﷺ. وآياته الباهرة [(١)] !.

فقد قال النبي ﷺ عندما حضرته الوفاة:(**يا عماه قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة)**، فقال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: ما حمل عليه إلا فزع الموت لأقررت بها عينك، ولا أقولها إلا لأقر بها عينك، فقال النبي ﷺ لأستغفرن لك ما لم أنه عنه، فنزل قوله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾} [التوبة: ١١٣]، ونزل أيضا:{إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾} [القصص: ٥٦]، ويؤكد ذلك ما روى عن النبي ﷺ أنه قال:(**أهون أهل النار عذابا أبو طالب منتعل بنعلين من نار يغلى منهما دماغه)** ومع أنه كان يعلم أن الرسول صادق بار راشد، لكنه لم يؤمن قلبه، وهناك فرق بين علم للقلب والتصديق كما يقول علماء العقيدة، وقد بدا لنا مما سبق أن المانع له كان الخوف من تعيير قريش له، وربما كانت هناك أسباب أخرى خفية بقيت سرا في طي

(١) محاضرات في السيرة النبوية، الرحيق المختوم، السيرة النبوية لابن هشام.

الكتمان، وهذا هو ما نميل إليه لأننا نلاحظ أن شخصية مثل شخصية أبى طالب في قوتها، لا يهمها تعيير أو مسبة أو ملامة، وعلى كل حال فإن أبا طالب قد برهن على قوة خلقه في دفاعه عن النبي ﷺ، وإذا لم يسعد بالإسلام فإنه أسعد الإسلام بمؤازة النبي ﷺ بكل ما يملك من نفس وجاه، مع بقائه على الشرك واستمساكه بدين الآباء، فقد ظل حي العاطفة ظاهر الحدب، على ابن أخيه، وهو مدرك كل الإدراك ما سوف تجره هذه الدعوة من متاعب عليه وعلى أسرته، وقد حمله إعزازه للنبي ﷺ وتأذيه عن مواجهته بما يكره على ضمان الحرية له، بل على التعبد لحمايته، وهو يبلغ عن ربه لأنه رجل من الرجالات المعدودين بمكة، فقد كان معظما في أهله وبين الناس فما يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته، وكما كان بقاؤه مع أهل مكة محترما للأوثان من أسباب امتداد نفوذه، ورعاية حقوقه، فقد ظل على ذلك حتى قبل وفاته، فلم ينس وهو على فراش الموت أن يوصي قريشا عامة وأعمام النبي ﷺ خاصة فقال: يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، فيكم السيد المطاع وفيكم المقدام الشجاع، والواسع الباع وهكذا... إلى أن قال: إني أوصيكم بمحمد خيرا، فإنه الأمين في قريش والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وايم الله كأني أنظر صعاليك العرب وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته، وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا، ودورها خرابا، وضعفاؤها أربابا، وإذا أعظمهم إليه، أحوجهم إليه، وأبعدهم منه، أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودارها، وأصفت له فؤادها، وأعطته قيادها، يا معشر قريش كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ

أحد يهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مده، ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز [١]، ولدفعت عنه الدواهي، وكان زعيم بني هاشم بعد أبي طالب أبا لهب، فوعد بحماية النبي ﷺ وقال له:

(اعمل كما كنت تعمل في حياة أبي طالب فباللات لن يمسك أحد بضر ما دمت حيا، ولكن ذلك الوعد لم يقدر له الدوام إلا أياما، وعادت عداوة أبي لهب للنبي ﷺ من جديد وبصوره أشد.

وذلك لأن أبا جهل أوعز إلى أبي لهب أن يسأل النبي ﷺ عن مكان عمه أبي طالب في الآخرة، فهل هو من أهل الجنة أم من النار؟ فأجابه النبي ﷺ بأنه ليس في الجنة لعدم اعتناقه الإسلام، عندئذ استشاط أبو لهب غيظا، واعتبر عدم دخول أبي طالب الجنة نكران من الرسول ﷺ وجحودا بمعروفه وصنائعه. كأن الجنة بيديه ﷺ يدخل فيها من يشاء، وقد أبقى أبو لهب على عدائه للرسول ﷺ حتى مات.

قال ابن إسحاق: ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها، وبهلك عمه أبى طالب وكان له عضدا وحزا في أمره ومنعة وناصرا على قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبى طالب [٢].

وعن العباس بن عبد المطلب قال للنبي: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال:(**هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**).

---

(١) الهزاهز: الفتن.
(٢) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف.

ورجح ابن الجوزي في تلقيح فهوم أهل الأثر أن وفاة خديجة رضى الله عنها كان بعد وفاة أبى طالب بنحو من شهرين أو ثلاثة، وكان في رمضان من السنة العاشرة من البعثة النبوية، ولها خمس وستون سنة. وفي شوال من هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة وكانت ممن أسلم قديما، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان زوجها السكران بن عمرو، مات بأرض الحبشة أو بعد الرجوع إلى مكة.

وبذلك يكون موت العم والزوجة الذين يمثلان إن صحّ التعبير وزارة الدفاع، ووزارة المالية للدعوة الإسلامية، وإغلاق أبواب الدعوة أمامه سمى هذا العام بعام الحزن، فما لنا لا نحزن على تقصيرنا فما دعوة حبيتنا صلي الله عليه وسلم ؟!

* * *

الموقف السابع عشر

(١٧)

رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف

الموقف السابع عشر:
رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف

ولما نالت قريش من النبي ﷺ ما وصفناه من الأذى، خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، ويرجو أن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله عز وجل.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادته، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم من أجله، فردوا عليه ردا منكرا، وفاجؤوه بما لم يكن يتوقع من الغلظة وسمج القول. فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يرجوهم أن يكتموا خبر مقدمه إليهم عن قريش إذن، فلم يجيبوه إلى ذلك أيضا. ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى إن رجلي رسول الله ﷺ لتدميان، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى لقد شج في رأسه عدة شجاج [1]، حتى وصل رسول الله ﷺ إلى بستان لعتبة بن ربيعة، فرجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد عليه الصلاة والسلام وقد أنهكه التعب والجراح، إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه. فلما اطمأن النبي ﷺ في ذلك الظل رفع رأسه يدعو بهذا الدعاء:**(اللهم أني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك).**

(١) الطبقات لابن سعد.

ثم أن ابنى ربيعة صاحبي البستان تحركت الشفقة في قلبيهما، فدعوا غلاما نصرانيا لهما يقال له: (عداس) فأرسلا إليه قطفا من العنب في طبق، فلما وضع عداس العنب بين يدى رسول الله ﷺ وقال له: كل، مد الرسول يده قائلا:(**بسم الله**). ثم أكل، فقال عداس متعجبا: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له الرسول:(ومن أي البلاد أنت؟ وما دينك؟) قال: نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى (قرية بالموصل) فقال الرسول ﷺ:(**من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟**) فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ:(**ذلك أخى، كان نبيا وأنا نبى...**). فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

قال ابن إسحاق: ثم أن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعا إلى مكة حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا.

وقد قص الله خبرهم عليه ﷺ في قوله:{وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ} [الأحقاف: ٢٩]، إلى قوله:{وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأحقاف: ٣١]، وقوله:{قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ} [الجن: ١].

ثم عاد رسول الله ﷺ - ومعه زيد بن حارثة - يريد دخول مكة. فقال له زيد: (كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك)؟ فقال: **(يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه)** ثم أرسل رجلا من خزاعة إلى مطعم بن عدى يخبره أنه داخل مكة في جواره، فاستجاب مطعم لذلك. وعاد رسول الله ﷺ إلى مكة).

العبر والعظات:

إذا تأملنا في هذه الهجرة التي قام بها النبي ﷺ، وما انطوت عليه من العذاب الواصب الذي رآه عليه الصلاة والسلام، ثم في شكل عودته إلى مكة نستخلص الأمور التالية:

أولا: إن ما كان يلاقيه النبي عليه الصلاة والسلام من مختلف ألوان المحنة، لاسيما هذه الذي رآه في ذهابه للطائف، إنما كان من جملة أعماله التبليغية للناس..

فكما أنه جاء يبلغنا العقيدة الصحيحة عن الكون وخالقه، وأحكام العبادات والأخلاق والمعاملات، كذلك جاء يبلغ المسلمين ما كلفهم الله به من واجب الصبر، ويبين لهم كيفية تطبيق الصبر والمصابرة اللذين أمر الله بهما في قوله:{ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ } [آل عمران: ٢٠٠].

ولقد علمنا النبي ﷺ القيام بالعبادات بالوسيلة التطبيقية، فقال:**(صلوا كما رأيتموني أصلى)**، وقال:**(خذوا عنى مناسككم)**. وبناء على هذا المذهب نفسه قاسى أمر أنواع المحن في سبيل الدعوة ليقول بلسان حاله لجميع الدعاة من بعده:**(اصبروا كما رأيتموني أصبر)** وليبين أن الصبر ومصارعة الشدائد من أهم مبادئ الإسلام التي بعث بها إلى الناس كافة.

وربما يتوهم من اطلع على ظاهرة سيرة هجرته ﷺ إلى الطائف، أنه غلب على أمره هناك، وأن الضجر قد نال منه، وأنه ربما استعظم كل تلك المحن والمشاق التي أصابته، ولذلك توجه إلى الله بذلك الدعاء بعد أن اطمأن في بستان ابني ربيعة.

لماذا اختار رسول الله ﷺ الطائف؟

كانت الطائف تمثل العمق الاستراتيجي لملأ قريش، بل كانت لقريش أطماع في الطائف، ولقد حاولت في الماضي أن تضم الطائف إليها، ووثبت على وادي وج وذلك لما فيه من الشجر والزرع، حتى خافتهم ثقيف وحالفتهم، وأدخلت معهم بني دوس، وقد كان كثير من أغنياء مكة يملكون الأملاك في الطائف، ويقضون فيها فصل الصيف، وكانت قبيلة بني هاشم وعبد شمس على اتصال مستمر مع الطائف، كما كانت تربط مخزوم مصالح مالية مشتركة بثقيف فإذا اتجه الرسول ﷺ إلى الطائف فذلك توجه مدروس، وإذا استطاع أن يجد له فيها موضع قدم، وعصبة تناصره، فإن ذلك سيفزع قريشًا، ويهدد أمنها ومصالحها الاقتصادية تهديدًا مباشرًا، بل قد يؤدي لتطويقها وعزلها عن الخارج، وهذا التحرك الدعوى السياسي الاستراتيجي، الذي يقوم به الرسول ﷺ يدل على حرصه في الأخذ بالأسباب لإيجاد دولة مسلمة أو قوة جديدة، تطرح نفسها داخل حلبة الصراع؛ لأن الدولة أو إيجاد القوة التي لها وجودها، من الوسائل المهمة في تبليغ دعوة الله إلى الناس. عندما وصل النبي ﷺ إلى الطائف اتجه مباشرة إلى مركز السلطة وموضع القرار السياسي في الطائف.

٢ ـ أين كان موضع السلطة في الطائف؟

كان بنو مالك والأحلاف - بحكم أسبقيتهم الزمنية للاستيطان - هما المسيطرين عليها وتنتهي إليهما قيادتها، فكانت لهما الرئاسة الدينية المتمثلة في رعاية المسجد، بالإضافة إلى الزعامة السياسية العامة والعلاقة الخارجية، والنفوذ الاقتصادي، إلا أنهما مع ذلك لم يكونا في وضع يمكنهما من الدفاع عن منطقة الطائف، التي كانت من أخصب بلاد العرب وأكثرها جذبًا للأنظار والأطماع، فكانا يخافان قبيلة هوازن، ويخافان قريش ويخافان بني عامر، وكلها قبائل

قوية وقادرة على الانقضاض والاستلاب؛ ولذلك فقد اعتمد زعماء الطائف على سياسة المهادنة وحفظ الاستقرار السياسي عن طريق المعاهدات والموازنات وهي عين الطريق التي كانت تسير عليها قريش، فصار بنو مالك يوثقون علاقاتهم مع هوازن ليأمنوا شرها، وصار الأحلاف يرتبطون بقريش لتأمين جانبها.

هذا ولم يكن الرسول ﷺ غافلاً عن هذه الشبكة من العلاقات والمعاهدات، وهو يتجه إلى الطائف، بل كان يعرف أن الطائف لم تكن توجد بها سلطة مركزية واحدة، وإنما يقتسم السلطة فيها بطنان من بطون العرب بموجب اتفاقية داخلية، وأن أيا منهما كان يدور في فلك قبيلة خارجية أقوى، فإذا استطاع أن يستميل إليه أيا منهما، فسوف يكون لذلك أثر كبير في ميزان القوى السياسية، هذا على وجه العموم، أما إذا استطاع على وجه الخصوص أن يستميل إليه الأحلاف، وهو المعسكر المتحالف مع قريش، فإن خطته تكون قد بلغت تمامها وهو أمر غير مستحيل، فهو يعلم أن موادة هذا المعسكر لقريش لا تقوم على القناعة المذهبية أو الولاء الديني بقدر ما تقوم على أساس التخوف من قريش، وعلى هذا التقدير للوضع السياسي اتجه الرسول ﷺ مباشرة حينما دخل الطائف، إلى بني عمرو بن عمير الذين يترأسون الأحلاف، ويرتبطون بقريش، ولم يذهب إلى بني مالك الذين يتحالفون مع هوازن قال ابن هشام في السيرة: " لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جُمح غير أن بني عمرو كانوا شديدي الحذر وكثيري التخوف، فلم يستجيبوا لدعوة الرسول ﷺ بل بالغوا في السفه وسوء الأدب معه فقام رسول الله ﷺ من عندهم،

وقد يئس من خير ثقيف وقال لهم:(**إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني**) وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيؤزرهم ذلك عليه، فقد كان رسول الله ﷺ يود أن تتم اتصالاته تلك في جو من السرية، وألا تنكشف تحركاته لقريش فقد كان النبي ﷺ يهتم كثيرا بجوانب الحيطة والحذر فقد: كان خروجه من مكة على الأقدام، حتى لا تظن قريش أنه ينوي الخروج من مكة؛ لأنه لو خرج راكبًا فذلك مما يثير الشبهة والشكوك، وأنه ينوي الخروج والسفر إلى جهة ما، مما قد يعرضه للمنع من الخروج من مكة دون اعتراض من أحد.

عن عروة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سألت رسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال:(**لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم عليَّ ثم قال: يا محمد فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**).

فقال النبي ﷺ:(**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشركُ به شيئًا**).

قال الحافظ ما ملخصه: كان ابن عبد ياليل من أكابر أهل الطائف من ثقيف وقد روى عبد بن حميد في تفسيره من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد في قوله تعالى:{عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: ٣١]، قال: نزلت في عتبة بن ربيعة وابن عبد ياليل الثقفى، ومن طريق قتادة قال: هما الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود.

وقد ذكر موسى بن عقبة وابن إسحاق أن كنانة بن عبد ياليل وفد مع وفد من الطائف سنة عشر فأسلموا، وذكره ابن عبد البر في الصحابة لذلك، لكن ذكر المديني أن الوفد أسلموا إلا كنانة فخرج إلى الروم ومات بعدها بعد ذلك، وذكر موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب أنه ﷺ لما مات أبو طالب توجه إلى الطائف رجاء أن يؤوه، فعمد إلى ثلاثة نفر من ثقيف وهم سادتهم، وهم إخوة عبد ياليل وحبيب ومسعود بنو عمرو، فعرض عليهم نفسه، وشكا إليه ما انتهك منه قومه، فردوا عليه أقبح رد، وهكذا تحمل النبي صلي الله عليه وسلم الإيذاء والنكبات والمشي على الأرجل من أجل الدعوة، فأين نحن من ذلك؟!

* * *

الموقف الثامن عشر

(١٨)

الرحلـة المباركـة

الموقف الثامن عشر:
الرحلة المباركة

كان الإسراء مكافأة ربانية على ما لاقاه الحبيب ﷺ من أتراح وآلام وأحزان، إذ كان بعد حصار دام ثلاث سنوات في شعب أبى طالب وما لاقاه في أثنائه من جوع وحرمان، إنه كان بعد فقد الناصر الحميم، وفقد خديجة أم المؤمنين، إنه كان بعد خيبة الأمل في ثقيف، وما ناله من سفهائها وصبيانها وعبيدها.

بعد هذه الآلام كافأ الحبيب حبيبه فرفعه إليه، وقربه وأدناه وخلع عليه من حلل الرضا ما أنساه كل ما كان قد لاقاه من حزن ونصب وألم وتعب، وما قد يلاقيه في سبيل إبلاغ رسالته ونشر دعوته، فصلى الله عليه وعلى أصحابه ما ذكر الله الذاكرون، وما غفل عن ذكره الغافلون (١).

وما أسعدنا في هذا الفصل بالآيات والأحاديث الصحيحة في البخاري ومسلم فلن ندعها لروايات أهل السير.

قال الله تعالى:{سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ} [الإسراء: ١].

وقال القاسمي - رحمه الله -: دلت هذه الآية على ثبوت الإسراء، وهو سير النبي ﷺ إلى بيت المقدس ليلا، وأما العروج إلى السماوات فهذه الآية لا تدل عليه، ومنهم من يستدل عليه بأول سورة النجم.

وبعد هذه الظروف التي مر بها رسول الله ﷺ أراد الله أن يكرمه ويطلعه على ما لم يطلع عليه أحد، فقد كانت هناك مشاهد أرضية سماوية، سفلية عقلية علوية، يطيش العقل منها لأنها خارجة عن

(١) هذا الحبيب يا محب لأبي بكر الجزائري.

حدود العقل البشرى وإنما هو التثبيت الإلهى لرسول الله ﷺ، فما رآه ﷺ في رحلة الإسراء ثم في رحلة العروج حتى كان قاب قوسين أو أدنى إلا أنه موقف بداية من فتح السماوات له حتى رؤية الجنة واطلع على ما لم يطلع عليه ملك مقرب أو نبى مرسل. فهذه المعجزة تعنى تجريد النبي ﷺ من أي مقومات أو من عوامل مساعدة إذ أن العامل لها هو الله جل في علاه، ولنعلم أنه مهما كانت قوة الإنسان فهناك الضعف أمام الله جل في علاه، ولنعلم أن الإسراء سبق الهجرة لأن الإسلام يحتاج إلى رجال أقوياء حتى يواجهوا اليهود بالمدينة وليس معهم ضعاف الإيمان، وليس ببعيد عنا ما حدث في صلح الحديبية من رد النبي ﷺ لمن آمن وقبول المشركين لمن ذهب إليهم من المسلمين.

إن الإسلام ليس في حاجة إلى عدد وإنما هو في حاجة إلى إعداد نفسي وبدني وإيماني فالغرض هو قوة الإسلام وتظل الرحلة المباركة وما رآه النبي ﷺ فيها من أن المسلم يزداد ثباتا على ثباته ويقينا على يقينه وأن قدرة الله فوق كل شيء وقدرة الله لاتحد بحدود. إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ويظل معراج المؤمن هو الصلاة في كل يوم وليلة فهو باب من العمل الصالح، وترفع الأعمال إلى الله وهذا هو عروج المؤمن ورحلته المباركة في كل وقت وحين، وتلك هي قدرة الله مع عباده، ومع من يصطفيهم ويكرمهم وربك يخلق ما يشاء ويختار [١].

* * *

(١) مواقف إيمانية مع المناسبات الدينية - للمؤلف -.

الموقف التاسع عشر

(١٩)

من الدار... إلى الغار

الموقف التاسع عشر: من الدار . . . إلى الغار

فشل خطة المشركين لاغتيال النبي ﷺ:

بعد أن منيت قريش بالفشل في منع الصحابة - رضي الله عنهم - من الهجرة إلى المدينة، على الرغم من أساليبهم الشنيعة والقبيحة، فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا على مصالحهم الاقتصادية، وكيانهم الاجتماعي القائم بين قبائل العرب؛ لذلك اجتمعت

قيادة قريش في دار الندوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدعوة، وقد تحدث ابن عباس في تفسيره لقوله تعالى:{ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ } [الأنفال: ٣٠]، فقال: فتشاورت قريش بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق، يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: أن أخرجوه، فاطلع الله نبيه على ذلك فبات عليٌّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة، وخرج النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليًّا رد الله كيدهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقتفوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم الأمر، فصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن ينسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثاً (١).

قال سيد قطب في تفسيره للآيات التي تتحدث عن مكر المشركين بالنبي ﷺ: " إنه التذكير بما كان في مكة، قبل تغير الحال، وتبدل الموقف، وإنه ليوحي بالثقة واليقين في المستقبل، كما ينبه إلى تدبير قدر الله وحكمته، فيما يقضي به ويأمر: ولقد كان المسلمون الذين يخاطبون بهذا القرآن أول مرة، يعرفون الحالين معرفة الذي عاش ورأى وذاق، وكان يكفي أن يذكروا بهذا الماضي القريب، وما كان

---

(١) البداية والنهاية، فتح ابن حجر في الباري، وحسن إسناده (٧/٢٣٦).

فيه من خوف وقلق، في مواجهة الحاضر الواقع وما فيه من أمن وطمأنينة، وما كان من تدبير المشركين ومكرهم برسول الله ﷺ، في مواجهة ما صار إليه من غلبة عليهم، لا مجرد النجاة منهم.

لقد كانوا يمكرون ليوثقوا رسول الله ﷺ ويحبسوه حتى يموت، أو ليقتلوه ويتخلصوا منه، أو ليخرجوه من مكة منفيًّا مطروداً، ولقد ائتمروا بهذا كله ثم اختاروا قتله، على أن يتولى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعاً، ليتفرق دمه في القبائل، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلها، فيرضوا بالدية وينتهي الأمر:{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾} [الأنفال: ٣٠].

إنها صورة ساخرة وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة، فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل من تلك القدرة القادرة، قدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط.

الترتيب النبوي للهجرة:

عن عائشة أم المؤمنين قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث.

قالت: فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ:(**أخرج عني من عندك**) فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك، فداك أبي وأمي! فقال:(**إنه قد أذن لي في الخروج والهجرة**) قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال:(الصحبة)

قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أريقط رجلاً من بني الديل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركًا يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاها لميعادهما.

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهم سفرة في جراب، فقطمت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنا [١] فيه ثلاث ليالٍ يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام، شاب، ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرا يَكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك، حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولي أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليها حين تذهب ساعة من العشاء فيبتان في رِسَل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما - حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بني الديل وهو من بني عبد ابن عدي هاديا خريتا - والخريت الماهر - بالهداية قد غمس حلفاً [٢] في آل العاص ابن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر به فهيرة، والدليل فأخذ بهم طريق السواحل " [٣].

(١) كمنا فيه: أي استترا واستخفيا.
(٢) غمس حلفا: أي أخذ بنصيب من عقدهم.
(٣) البخاري - باب هجرة النبي.

خروج الرسول ﷺ ووصوله إلى الغار:

لم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر.

أما علي فإن رسول الله ﷺ أمره أن يتخلف، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع، التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته وكان الميعاد بين الرسول ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء حتى لا تتبعهما قريش، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة، وقد اتعدا مع الليل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط في غار ثور بعد ثلاث ليال.

دعاء النبي ﷺ عند خروجه من مكة:

وقد دعا النبي ﷺ عند خروجه من مكة إلى المدينة قائلا:

(الحمد لله الذي خلقنى ولم أك شيئا، اللهم أعنى على هول الدنيا وبوائق الدهر).

نظرة على غار ثور:

يقع في جبل ثور: وهو في الجهة الجنوبية من المسجد الحرام على
بعد نحو (٤ كم)، وارتفاعه نحو (٧٤٨ م) من سطح البحر، ونحو (٤٥٨ م) من سفح الجبل، وهذا الغار صخرة مجوفة أشبه بسفينة صغيرة ظهرها إلى أعلى، وأقصى ارتفاعه (١.٢٥ م)، وأقصى طوله وعرضه (٣.٥ م × ٣.٥ م) وله فتحتان فتحة في ناحية الغرب، وهى التي دخل منها النبي ﷺ، وكان يدخل منها الشخص زاحفا على بطنه، ووسعت في بداية القرن التاسع الهجري ونهاية

القرن الثالث عشر الهجري. وأقصى ارتفاعها متر واحد مع الدرج المنحوت بأسفلها، وفتحة في الشرق وهى أوسع من الأول، ويقال: إنها محدثة ليسهل على الناس الدخول إلى الغار والخروج منه، وبين الفتحتين ٣.٥ م، وهذا الغار دون القمة وصعب المرتقى ويستغرق الصعود إليه نحو ساعة ونصف.

ولما وصل النبي ﷺ وأبو بكر إلى هذا الغار حين قصدا الهجرة إلى المدينة دخل أبو بكر قبله فلمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية يقى رسول الله ﷺ بنفسه، ثم دخل النبي ﷺ، وكان عبد الله بن أبى بكر يبيت عندهما، ويرجع بسحر، فيصبح مع قريش بمكة، ويأتيهما بخبرهم حين يختلط الظلام، وكان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يتبع بغنمه أثر عبد الله بعد ذهابه ليعفى عليه (١).

حفظ الله المدينة ممن يريدها بسوء:

فقد تكفل الله بحفظها من كل قاصد إياها بسوء، وتوعد النبي ﷺ من أحدث فيها حدثاً، أو آوى فيها محدثاً، أو أخاف أهلها، بلعنة الله وعذابه، وبالهلاك العاجل فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع** (٢) **كما ينماع الملح في الماء**)، وقال ﷺ: (**المدينة حرم الله، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه يوم القيامة عدلٌ، ولا صرفٌ**).

تحريم المدينة:

- فقد حرمها النبي ﷺ بوحي من الله فلا يراق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح، ولا يروع فيها أحد، ولا يقطع فيها شجر، ولا تحل

(١) تاريخ مكة، صحيح البخاري.
(٢) انماع: ذاب وسال.

لُقَطَتها إلا لمنشد، وغير ذلك ما يدخل في تحريمها قال ﷺ:**(إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وإني حرَّمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة)** [١].

وقال ﷺ:**(هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وإني أحرم ما بين لابتيها)** يعني المدينة، وقال ﷺ:**(لا يختلي خلاها ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشار بها ولا تقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيرة ولا تحمل فيها السلاح لقتال)**.

إن هذه الفضائل العظيمة جعلت الصحابة يتعلقون بها، ويحرصون على الهجرة إليها، والمقام فيها، وبذلك تجمعت طاقات الأمة فيها، ثم توجهت نحو القضاء على الشرك بأنواعه، والكفر بأشكاله، وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها.

* * *

(١) البخاري.

الموقف العشرون

(٢٠)

تحويل القبلة

الموقف العشرون: تحويل القبلة

في شعبان ٢هـ (فبراير ٦٢٤ م) أمر الله نبيه ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أن الضعفاء من المنافقين واليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة انكشفوا عن المسلمين ورجعوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة.

وفي تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد لا ينتهى إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم وإن كانت بأيديهم فلابد من تخليصها يوما.

قال محمود شيت خطاب بعنوان: دروس من الدوريات:

١- **الاستطلاع:** استطاع المسلمون التعرف على الطرق المحيطة بالمدينة المنورة والمؤدية لمكة المكرمة خاصة الطرق التجارية الحيوية لقريش بين مكة والشام، كما استطاعوا التعرف على قبائل المنطقة وموادعة بعضها.

٢- **القتال:** أثبت المسلمون أنهم أقوياء يستطيعون الدفاع عن أنفسهم تجاه المشركين من قريش والقبائل المجاورة وأهل المدينة غير الموالين للمسلمين، وتجاه اليهود، وأن بإمكانهم الدفاع عن عقيدتهم عند الحاجة.

٣- **الكتمان:** ابتكر الرسول ﷺ الرسائل المكتوبة للمحافظة على الكتمان، وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تفيده عن حركات المسلمين.

٤- **الحصار الاقتصادي:** هدد المسلمون أهم طريق تجارية بين مكة والشام. فأصبحت قريش غير آمنة حين تسلك هذا الطريق.

إن حدث تحويل القبلة قد غير مجرى الدعوة الإسلامية وشعر المسلمون فيها بالعزة والسيادة والنصر على الأعداء حيث إن

المنافقين كانوا يتهكمون على رسول الله ﷺ وصحابته ويقولون: إن محمدا تنازل عن نصف دينه وغدا سيتنازل عن النصف الآخر.

وكان في ذلك فرصة للتشهير برسول الله ﷺ وقد كان النبي ﷺ في شوق وحنين أن يتأتى أمر من الله بالتوجه إلى الكعبة ثانية حيث إن عيناه كانت مصعدتين إلى السماء تذرفان بالدموع سائلا الله أن يحول وجهه إلى الكعبة المشرفة فجاء الأمر من الله:{قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ} [البقرة: ١٤٤]، فسرت البشرى في نفوس المسلمين مسرى الكهرباء والماء وأثر الخبر في قبائل العرب فأسلم كثير.

ومن الدروس المستفادة من تحويل القبلة أهمية السنة واتباع الرسول ﷺ، ويستفاد من ذلك أيضا أن الأمة أصبح لها هويتها التي تميزها عن غيرها من الأمم ومن يومها نسمى (أهل القبلة)، كما أن اليهود والنصارى هم أهل الكتاب، وأن وحدة الأمة بوحدة قبلتها، ومنها توحيد القبلة مهما تباعدت الأقطار والأمصار فتتوحد عواطفهم ومشاعرهم. إن الأمة الإسلامية هي الرائدة للعالم عن طريق الإيمان بالله رب العالمين. ولأنها الحاملة لمشعل الاهتداء بوحي الله واتباع منهجه،

ولذا كان ضروريا استخلاص القلوب إلى الله وتجردها عن التعلق بغيره حيث كلفهم بالشريعة التي لا حرج فيها ولا مشقة ولا ضيق ولاعسر إنما الحنفية السمحاء ملة إبراهيم عليه السلام قال:{هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ} [الحج: ٧٨] (١).

فهل توحدت الصفوف والكلمات طاعة للرحمن وزجرًا للشيطان؟!

---

(١) وقفات إيمانية مع المناسبات الدينية - للمؤلف -.

الموقف الحادي والعشرون

(٢١)

طلب الغوث ونزول الملائكة يوم بدر

الموقف الحادى والعشرون:
طلب الغوث ونزول الملائكة يوم بـدر

دلت أدلة الكتاب والسنة على نزول الملائكة يوم بدر وقتالهم مع المسلمين، قال تعالى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [الأنفال: ٩ - ١٠].

عن ابن عباس قال: حدثنى عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل النبي ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه:(**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبدًا**)، وما زال ﷺ يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر ورده على منكبيه وهو يقول: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك: فأمده الله بالملائكة، قال أبو زميل فحدثني ابن عباس قال: (بينما رجل من المسلمين يشتد يومئذ في رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فأخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول ﷺ فقال:(**صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة**) فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين [(١)].

قال تعالى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ} [الأنفال: ٩ - ١٠].

(١) رواه مسلم.

وبدر تبعد عن المدينة حوالي ١٦٠ كم وهى موضع عين وموسم من مواسم العرب.

وقد أسر رجل من الأنصار العباس بن عبد المطلب فقال العباس: (إن هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجها على فرس أبلق، ما أراه في القوم) فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله فقال:(**اسكت فقد أيدك الله تعالى بملك كريم**) [(١)].

وفي صحيح البخاري: (جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال:(**أفضل المسلمين، أو كلمة نحوها**)، وكذلك من شهد بدرا من الملائكة).

فإن قيل: ما الحكمة في نزول الملائكة مع أن جبريل وحده قادر على إهلاكهم بأمر الله؟

أجاب السبكي بقوله: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مددا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله تعالى في عباده، والله تعالى هو فاعل الجميع، والله أعلم [(٢)].

الأسارى وإباحة الغنائم:

عن ابن عباس قال: لما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر:(**ما ترون في هؤلاء الأسارى**) فقال أبو بكر: يانبي الله هم بنو العم والعشيرة: أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا بن الخطاب؟ قال: لا والله يا رسول، ما أرى الذي يراه أبو بكر، ولكني أرى أن تمكننا منهم، فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل فيضرب

(١) رواه أحمد.
(٢) فتح الباري.

عنقه، وتمكنني من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها فهوى رسول الله ﷺ إلى ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت: فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: **(أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء ولقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة)** - شجرة قريبة من النبي ﷺ وأنزل الله عز وجل:{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ } [الأنفال: ٦٧]، إلى قوله:{ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا } [الأنفال: ٦٩]، فأحل الله لهم الغنيمة لهم.

قال القاسمي في تفسير الآية:{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ } ما صح له وما استقام له وقرئ (للنبي) على العهد، والمراد على كل نبينا ﷺ، وإنما نكر تلطفا به حتى لا يواجه العتاب وقرء أسارى.

ومعنى:{ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ } [الأنفال: ٦٧]، يكثر القتال ويبالغ فيه، حتى يذل الكفر، ويقل حزبه، ويعز الإسلام، ويستولي أهله، يقال: أثخن في العدو،، بالغ في قتلهم كما في الأساس، وأثخن في الأرض قتلا إذا بالغ، وقال ابن الأعرابي: أثخن إذا غلب وقهر. قال الرازي: وإنما حمله الأكثرون على القتل لأن الدولة إنما تقوى به.

قال المتنبي:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ::: حتى يراق على جوانبه الدم

ولأنه يوجب قوة الرعب وشدة المهابة فلذلك أمر الله تعالى به.

من روائع الإيمان يوم الفرقان يوم التقى الجمعان:

قال صفى الرحمن المباركفوري [١]:

---

(١) الرحيق المختوم.

وقد تجلت في هذه المعركة مناظر رائعة تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ، ففي هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفت بينهما المبادئ ففصلت بينهما السيوف، والتقى المقهور بقاهره فشفي منه غيظه، فمن ذلك:

أن النبي ﷺ أخبر أصحابه:**(أن الله أوجب الجنة لمن استشهد في سبيله)**، فقام عمير بن الحمام فقال: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟! قال:(نعم). قال: بخ بخ! فقال رسول الله ﷺ: **(ما يحملك على قولك بخ بخ؟)** قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال:**(فإنك من أهلها)**، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن.

* **أهمية التضرع إلى الله وشدة الاستعانة به:** لقد رأينا أن النبي ﷺ كان يطمئن أصحابه بأن النصر لهم، حتى إنه كان يشير إلى أماكن متفرقة في الأرض ويقول:**(هذا مصرع فلان)**، ولقد وقع الأمر كما أخبر عليه الصلاة والسلام، فما تزحزح أحد في مقتله عن موضع يده كما ورد في الحديث الصحيح.

ومع ذلك فقد رأيناه يقف طوال ليلة الجمعة في العريش الذي أقيم له، يجأر إلى الله تعالى داعيا ومتضرعا، باسطا كفيه إلى السماء يناشد الله عز وجل أن يؤتيه نصره الذي وعد حتى سقط عنه رداؤه وأشفق عليه أبو بكر، والتزمه قائلا: (كفى يا رسول الله، إن الله منجز لك ما وعد). فلماذا كل هذه الضراعة مادام أنه مطمئن إلى درجة أنه قال:**(لكأني أنظر إلى مصارع القوم)** وأنه حدد مصارع بعضهم على الأرض؟

والجواب: أن اطمئنان النبي ﷺ وإيمانه بالنصر، إنما كان تصديقا منه للوعد الذي وعد به رسوله، ولاشك أن الله لا يخلف الميعاد،

وربما أوحى إليه بخبر النصر في تلك الموقعة.

أما الاستغراق في التضرع والدعاء وبسط الكف إلى السماء، فتلك هي وظيفة العبودية التي خلق من أجلها الإنسان، وذلك هو ثمن النصر في كل حال.

فما النصر - مهما توافرت الأسباب والوسائل - إلا من عند الله وبتوفيقه، والله عز وجل لا يريد منا إلا أن نكون عبيدا له بالطبع والاختيار، وما تقرب متقرب إلى الله بصفة أعظم من صفة العبودية، وما استأهل إنسان بواسطة من الوسائط استجابة دعاء من الله تعالى، كما استأهل ذلك بواسطة ذل العبودية يتزين ويتبرقع به بين يدي الله تعالى.

وما أنواع المصائب والمحن المختلفة التي تهدد الإنسان في هذه الحياة أو تنزل به، إلا أسباب وعوامل تنبهه لعبوديته، وتصرف آماله وفكره إلى عظمة الله سبحانه وتعالى وباهر قدرته، كي يفر إليه سبحانه وتعالى، ويبسط أمامه ضعفه وعبوديته، ويستجير به من كل فتنة وبلاء، وإذا استيقظ الإنسان في حياته لهذه الحقيقة وانصبغ سلوكه بها، فقد وصل إلى الحد الذي أمر الله عباده جميعا أن يقفوا عنده وينتبهوا إليه.

فهذه العبودية التي اتخذت مظهرها الرائع في طول دعاء النبي ﷺ وشدة ضراعته ومناشدته لربه أن يؤتيه النصر، هي الثمن الذي استحق به ذلك التأييد الإلهي العظيم في تلك المعركة. وقد نصت على ذلك الآية الكريمة إذ تقول:{إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ۝٩} [الأنفال: ٩].

ويقينا منه ﷺ بهذه العبودية لله عز وجل، كان واثقا بالنصر طمئنا إلى العاقبة للمسلمين، ثم قارن مظهر العبودية التي تجلت في

موقفه ﷺ ونتائج ذلك، مع مظهر ذلك الطغيان والتجبر الذي تجلى في موقف أبى جهل حينما قال: (لن نرجع عن بدر أبدا حتى ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرتنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا، وتأمل في ذلك التجبر والجبروت.

لقد كانت نتيجة العبودية والخضوع لله تعالى، عزة قعساء ومجدا شامخا، خضع لهما جبين الدنيا بأسرها قد كانت نتيجة الطغيان والجبروت الزائفين قبرا من الضيعة والهوان أقيم لأربابها حيث كانوا يتساقون فيه الخمر وتعزف عليه القيان. وتلك هي سنة الكون كلما تلاقت عبودية لله خالصة مع جبروت وطغيان زائفين.

- (الإمداد بالملائكة في غزوة بدر): انطوت بدر على معجزة من أعظم معجزات التأييد والنصر للمسلمين الصادقين. فقد أمد الله المسلمين فيها بملائكة يقاتلون معهم، وهذه حقيقة ثبتت بدلالة صريحة من الكتاب والسنة الصحيحة. روى ابن هشام أن النبي ﷺ خفق خفقة في العريش ثم انتبه فقال:(**أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على النقع**) ورواه البخاري أيضا بلفظ قريب منه.

ومن أوضح الأدلة القاطعة على أن التعبير بالملائكة في بيان الله عز وجل ليس المقصود به ما يتوهمه بعضهم من المدد الروحي أو القوة المعنوية أو نحو ذلك - أقول من أوضح الأدلة القاطعة على بطلان هذا الوهم - ضبط البيان الإلهي الملائكة بعدد محدود وهو الألف، في قوله عز وجل:{أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ } [الأنفال: ٩]. إذ العدد من مستلزمات الكم المنفصل في الأشياء، ولا يكون ذلك إلا في الأشياء المادية المحسوسة [١].

(١) انظر في ذلك: وقفات تربوية لأحمد فريد، لسيرة ابن هشام، سبل الهدى والرشاد. نساء

ومن هنا نعلم أن تقييد البيان الإلهي بالملائكة بعدد معين ينطوي على حكم باهرة من أجلها قطع السبيل على من يريد أن يتناول هذه الآية، ويفسر الملائكة بالمعنى الذي يروق له وهو مجرد الدعم المعنوي.

ويظل الدعاء سلاح المؤمن، ومن أهم الأسلحة التي يتغافل عنها الكثير، وربما يملَّ الإنسان من دعائه ويقول: دعوت فلم يستجب لي، ولو دعونا الله حقا لا يستجيب لنا، وكما قال عمر رضي الله عنه: إني لا أحمل هم الدعاء ولكني أحمل همَّ الإجابة!.

* * *

لهن شأن، مفتاح العناية.

الموقف الثاني والعشرون

(٢٢)

(سنة الله في النصر والهزيمة - أحد)

الموقف الثاني والعشرون:

[سنة الله في النصر والهزيمة ـ أحد]

صلى رسول الله ﷺ بأصحابه الظهر قاعدًا لكثرة ما نزف من دمه، وصلى وراءه المسلمون قعود، وتوجه النبي ﷺ بعد الصلاة إلى الله بالدعاء والثناء على ما نالهم من الجهد والبلاء، فقال لأصحابه: **(استووا، حتى أثنى على ربي عز وجل)** فصاروا خلفه صفوفًا، ثم دعا بهذه الكلمات الدالة على عمق الإيمان، فقال ﷺ:**(اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم الغلبة، والأمن يوم الخوف، اللهم عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا نادمين ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسولك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق)** ثم ركب فرسه ورجع إلى المدينة [١].

وهذا أمر عظيم شرعه رسول الله ﷺ لأمته لكي يطلبوا النصر والتوفيق من رب العالمين، وبين لأمته أن الدعاء مطلوب في ساعة النصر والفتح، وفي ساعة الهزيمة لأن الدعاء هو العبادة،

(١) السيرة النبوية الصحيحة.

كما أنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ويجعل القلوب متعلقة بخالقها، فينزل عليها السكينة، والثبات والاطمئنان ويمدها بقوة روحية عظيمة، فترتفع المعنويات نحو المعالي وتتطلع إلى ما عند الله تعالى.

في أعقاب المعركة، يتخذ النبي ﷺ أهبته وينظم المسلمين صفوفًا، لكي يثني على ربه عز وجل، إنه لموقف عظيم، يجلي إيمانًا عميقًا، ويكشف عن العبودية المطلقة لرب العالمين الفعَّال لما يريد، فهو القابض والباسط، المعطي والمانع، لا راد ولا معقب لحكمه.

إن هذا الموقف من أعظم مواقف العبودية التي تسمو بالعابدين، وتجل المعبود، كأعظم ما يكون الإجلال والإكبار، وأبرز ما يكون الحمد والثناء.

رابعًا: معرفة وجهة العدو:

بعد أن انسحب جيش المشركين من أرض المعركة أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد الغزوة مباشرة، وذلك لمعرفة اتجاه العدو، فقال له:(**اخرج في آثار القوم، وانظر ماذا يصنعون وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم**) قال علي: فخرجت في أثرهم ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة [١]. فرجع علي رضي الله عنه وأخبر رسول الله بخبر القوم.

(١) البداية والنهاية، والمنهج الحركي للسيرة.

وفي هذا الخبر عدة دروس وعبر منها:

يقظة الرسول ﷺ، ومراقبته الدقيقة لتحركات العدو، وقدرته ﷺ على تقدير الأمور، وظهور قوته المعنوية العالية، ويظهر ذلك في استعداده لمقاتلة المشركين لو أرادوا المدينة، وفيه ثقة النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه ومعرفته بمعادن الرجال، وفيه شجاعة علي رضي الله عنه؛ لأن هذا الجيش لو أبصره ما تورع في محاولة قتله، ونلحظ أن النبي ﷺ أقام في أرض المعركة بعد أن انتهت، تفقد خلالها الجرحى والشهداء، وأمر بدفنهم ودعا ربه وأثنى عليه سبحانه، وأرسل عليًّا ليتتبع خبر القوم، كل ذلك من أجل أن يحافظ على النصر الذي أحرزه المسلمون في غزوة أحد، وهذا من فقه سنن الله تعالى في الحروب والمعارك، فقد جعل سبحانه من سننه في خلقه أن جعل للنصر أسبابًا، وللهزيمة أسبابًا، فمن أخذ بأسباب النصر، وصدق التوكل على الله سبحانه وتعالى حقيقة التوكل نال النصر بإذن الله عز وجل، كما قال تعالى:{ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾} [الفتح: ٢٣].

ويتجلى فقه النبي ﷺ في ممارسة سنة الأخذ بالأسباب في غزوة حمراء الأسد.

*** حمراء الأسد:**

نجد في بعض الروايات: أن النبي ﷺ تابع أخبار المشركين بواسطة بعض أتباعه حتى بعد رجوعهم إلى مكة، وبلغه مقالة أبي سفيان يلوم فيها جنده لكونهم لم يشفوا غليلهم من محمد وجنده، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما انصرف أبو سفيان والمشركون من أحد وبلغوا الروحاء [(١)] قال أبو سفيان: لا محمدًا قتلتم ولا

(١) الروحاء: تبعد عن المدينة ٧٣ كم.

الكواعب أردفتم، شر ما صنعتم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ [١]. وتفيد هذه الرواية خبر استطلاع الرسول ﷺ أعداءه حتى بعد انتهاء المعركة؛ وذلك لكي يطمئن على عدم مباغتتهم له.

وهناك أمر مهم يتصل بهذا العفو قد يترك أثرًا في نفوسهم يعوقها بعض الشيء، ذلك هو موقف رسول الله ﷺ مما حدث منهم، إنهم يشعرون أن الرسول ﷺ هو وحده الذي تحمل نتيجة تلك الأخطاء فلا بد أن ينالوا منه عفوًا تطيب به نفوسهم، وتتم به نعمة الله عليهم، لهذا أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يعفو عنهم وحثه على الاستغفار لهم، كما أمره أن يأخذ رأيهم والاستماع إلى مشورتهم، ولا يجعل ما حدث صارفًا له عن الاستفادة من خبراتهم ومشورتهم، قال تعالى: { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ } [آل عمران: ١٥٩].

* انخذال ابن سلول المنافق:

كان هدف عبد الله ابن سلول بانسحابه بثلاثمائة من المنافقين، كان يريد أن يحدث بلبلة واضطرابًا في الجيش الإسلامي، لتنهار معنوياته ويتشجع العدو، وتعلو همته.

وعمله هذا ينطوي على استهانة بمستقبل الإسلام، وغدر به في أحلك الظروف، وقد حاول عبد الله بن حرام أن يمنعهم من ذلك الانخذال إلا أنهم رفضوا دعوته،

وفيهم نزل قول الله تعالى:

(١) مجمع الزوائد، للهيثمي.

{وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾} [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧].

فالبرغم من خطورة الموقف وحاجة المسلمين لهذا العدد، لقلة جيش المسلمين وكثرة جيش قريش إلا أن الرسول ﷺ ترك هؤلاء المنافقين وشأنهم، ولم يعرهم أي اهتمام، واكتفى بفضح أمرهم أمام الناس. وكان لهذا الأسلوب أثره في توبيخ وإهانة ابن سلول، فعندما رجع رسول الله من غزوته من حمراء الأسد، أراد ابن سلول أن يقوم كعادته لحث الناس على طاعة رسول الله ﷺ، قال الإمام الزهري: كان عبد الله بن أبي له مقام يقومه كل جمعة لا ينكسر له شرف في نفسه وفي قومه، وكان فيهم شريفًا، إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به، فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجع الناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا: اجلس أي عدو الله، والله لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجرًا، إن قمت أشدد أمره. فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك ما لك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب إلى رجال من أصحابه يجبذونني ويعنفونني، لكأنما قلت بجرًا أن قمت أشدد أمره، قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله، قال: والله ما أبغي أن يستغفر لي.

أحد جبل يحبنا ونحبه:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن النبي ﷺ طَلَع له أحدٌ فقال:**(هذا جبل يحبنا ونحبه)** [١].

وهذا يدل على دقة شعور النبي ﷺ حيث قارن بين ما كسبه المسلمون من منعة التحصن والاحتماء بذلك الجبل، وما أودعه الله تعالى فيه من قابلية لذلك، فعبر عن ذلك بأرقى وشائج الصلة وهي المحبة، أفلا يعتبر هذا الوجدان الحي والإحساس المرهف مثلا أعلى على التخلق بخلق الوفاء؟. ألا إن الذي يعترف بفضل الحجارة الصماء، ويفضي عليها من الأخلاق السامية ما لا يتصف به إلا أفاضل العقلاء لجدير به أن يعترف بأدنى فضل يكون من بني الإنسان، وإن كان وفاؤه ﷺ للجماد قد سما حتى حاز أرقى العبارات وأرقها، فأخلق ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم من ذلك، فضلا عمن تجمعه بهم الأخوة في الله تعالى.

والحديث النبوي الشريف فيه كثير من المعاني منها ما ذكره الحميدي، ومنها ما قاله الأستاذ صالح الشامي حيث قال: والإنسان كثيرًا ما يربط بين المصيبة وبين مكانها أو زمانها.. وحتى لا تنسحب هذه العادة وتستمر بعد أن جاء الإسلام كان هذا القول الكريم بيانًا للحق، وابتعادًا عن الطيرة والتشاؤم، وذلك المعنى الذي يبقي الآثار السيئة في نفس الإنسان، ولا شك أن المسلمين سيقفون على أحد يتذكرون تلك المعركة فحتى لا يرتبط بفكرهم ذلك المعنى السيئ بين لهم أن المكان والزمان مخلوقات لله لا علاقة لهما ولا أثر بما يحدث فيهما، وإنما الأمر بيد الله تعالى، والاستشهاد في سبيل الله كرامة لصاحبه لا مصيبة، وهكذا تتسق المفاهيم في إطارها

(١) صحيح البخاري.

الإيماني، إذًا (أحد) يكرم ويحب انطلاقًا من هذا القول الكريم، وكيف لا يكرم وقد اختاره الله ليثوي فيه حمزة وأصحابه ممن اختارهم الله في ذلك اليوم فجادوا بأنفسهم ابتغاء مرضاته، كما بينا سابقًا.

الملائكة في أحد:

قال سعد بن أبي وقاص ﷺ: رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد، رجلين عليهما ثياب يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل، عليهما السلام. وهذا خاص بالدفاع عن النبي ﷺ؛ لأن الله تكفل بعصمته من الناس، ولم يصح أن الملائكة قاتلت في أحد سوى هذا القتال، ذلك لأن الله تعالى وعدهم أن يمدهم؛ وجعل وعده معلقًا على ثلاثة أمور: الصبر والتقوى وإتيان الأعداء من فورهم، ولم تتحقق هذه الأمور فلم يحصل الإمداد، قال تعالى:{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾} [آل عمران: ١٢٤ - ١٢٥].

قوانين النصر والهزيمة من سورة الأنفال، وآل عمران:

تحدثت سورة الأنفال عن غزوة بدر بشيء من التفصيل، وتحدثت سورة آل عمران عن غزوة أحد لكي تتعلم الأمة كثيرًا من المفاهيم، تتعلق بمفهوم القضاء والقدر، ومفهوم الحياة والموت، ومفهوم النصر والهزيمة، ومفهوم الربح والخسارة، ومفهوم الإيمان والنفاق، ومفهوم المنحة والمحنة، ومن المفاهيم التي تعلمها الصحابة - رضي الله عنهم - من خلال أحداث بدر وأحد وسورتي الأنفال وآل عمران، قوانين النصر والهزيمة، وهذه القوانين قد بينتها الآيات الكريمة ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

أ - النصر ابتداء وانتهاء، بيد الله عز وجل، وليس ملكًا لأحد من الخلق، يهبه الله لمن يشاء ويصرفه عمن يشاء، مثله مثل الرزق، والأجل والعمل:{ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾} [الأنفال: ١٠].

ب - وحين يقدر الله تعالى النصر، فلن تستطيع قوى الأرض كلها الحيلولة دونه، وحين يقدر الهزيمة، فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمة، قال تعالى:{إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ } [آل عمران: ١٦٠].

ج - ولكن هذا النصر له نواميس ثابتة عند الله عز وجل، نحن بحاجة إلى فقهها، فلا بد أن تكون الراية خالصة لله سبحانه عند الذين يمثلون جنده، قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾} [محمد: ٧]. ونصر الله في الاستجابة له، والاستقامة على منهجه والجهاد في سبيله.

د - ووحدة الصف ووحدة الكلمة أساس في النصر، وتفريق الكلمة والاختلاف في الرأي دمار وهزيمة، قال تعالى:{وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾} [الأنفال: ٤٦].

هـ - وطاعة أمر الله تعالى ورسوله وعدم الخروج عليها أساس في النصر، أما المعصية فتقود إلى الهزيمة قال تعالى:{وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ } [الأنفال: ٤٦].

و - وحب الدنيا والتهافت عليها يفقد الأمة عون الله ونصره، قال تعالى:{حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ} [آل عمران: ١٥٢].

ز - ونقص العدد والعدة ليس هو سبب الهزيمة، قال تعالى:{وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾} [آل عمران: ١٢٣].

ح - ولكن لا بد من الإعداد المادي والمعنوي لمواجهة العدو، قال تعالى:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾} [الأنفال: ٦٠].

ط - والثبات عند المواجهة، والصبر عند اللقاء من العوامل الرئيسية في النصر، قال تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾} [الأنفال: ٤٥]. وقال تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾} [الأنفال: ١٥].

ي - ولا شيء يعين على الثبات والصبر عند اللقاء مثل ذكر الله الكثير، باتجاه القلب إلى الله وحده منزل النصر، وطلب العون منه، والتوكل عليه، وعدم الاعتماد على العدد أو العدة أو الذات، والتبرؤ من الحول والقوة، هو عامل أساسي من عوامل النصر، قال تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾} [الأنفال: ٤٥].

فضل الشهداء وما أعده الله لهم من نعيم مقيم:

قال رسول الله ﷺ:(**لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال عز وجل: أنا أبلغهم عنكم**) فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ هذه الآيات، قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

وقد كان في مقدمة هؤلاء الشهداء - أسد الله - حمزة بن عبد المطلب، والنضر بن الحارث - بعد أن أبلوا بلاءً حسنًا.

* * *

الموقف الثالث والعشرون

(٢٣)

حديـث الإفـك

الموقف الثالث والعشرون: حديث الإفك

واخترت هذا العنوان، على طبيعته؛ لأصل بهذا المصطلح الخاص إلى النص العام الذي لابد أن يشعر به لأبناء الصف المسلم خطورة أخذهم بالإشاعة دون تثبيت، وكيف أن الإشاعة كفيلة بتحطيم هذا الصف كله.

إنه وإن تجسد باتهام الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها، لكنه صورة قد تتكرر في كل جيل وتضع النيل من القيادة هدفا رئيسا لتحطيم ثقة القواعد بها، وحين تعجز القوة المادية عن النيل من القيادة فليس أمام العدو إلا الحرب المعنوية على هذه القيادة وتحطيمها من خلال هذه الحرب؛ ولذلك لن نتناول حادثة الإفك كحدث تاريخي بتفصيلاته ودروسه، ولكننا سنتناوله من خلال حرب الإشاعة التي يبثها العدو المنبث في الصف ضد القيادة.

وأهم ما في هذا أن مصدر الفرية - على ما يبدو - هم المنافقون تحت راية زعيمهم عبد الله بن أبي، وحين يتحصن الصف من الفرية، وتبقى في صفوف المنافقين فلا خطر منهم ولا هم، لكن عندما تنتقل إلى داخل الصف المسلم فتسري فيه سريان النار في الهشيم عندئذ يبدو خطرهم الكبير.

والنص القرآني حين تحدث عن هذه الحادثة كان يخاطب الصف المسلم أكثر مما يخاطب صف المنافقين، ويربي المؤمنين الصادقين الذين تأثروا بهذه الفرية، واستجابوا للحديث في الظنة دون بينة، والنقاط المحددة التي نعرض لها في هذا الحديث المؤتفك هي ما يلي:

أولا: البعد عن مظان التهمة واجب أساسي على الصف المسلم، وعليه أن يعلم - وخاصة القيادة - أنه هدف لأنظار العدو والصديق، فيتجنب ما استطاع البعد عن موطن الريبة.

ثانيا: عدم الأخذ بالإشاعة كما يقول القرآن الكريم:{لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾} [النور: ١٣]، وأي خبر غير موثق بالنسبة للفرد المسلم هو مرفوض عنده، وليعلم هذا الأخ أن رواية الإشاعة، وتناقل الخبر غير الموثق تحيله إلى أخ كاذب... وهذا حكم القرآن في أمثال هؤلاء، هم الكاذبون عند الله، ولو لم يفتر الكذب، لو كان نقله صدقا محضا عمن سمع منه فهو عند الله من الكاذبين.

ثالثا: ليبق الميزان الحساس في الحكم على الإشاعة هو الميزان الذاتي، فلا بد من ثقة الأخ بإخوانه ثقته بنفسه، وقد أقر القرآن الكريم هذا الميزان وأثني عليه، وذلك بمناسبة الحديث الذي جري بين أبي أيوب الأنصاري وزوجة أم أيوب ﵁ إذ قالت لزوجها: (أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله. فقال: فعائشة والله خير منك). ونتمني لكل أخ وهو يثير الإشاعة بحق أخيه أو قيادته أن يحسب على أقل تقدير أن أخاه أو مسؤوله ليس أقل حرصا على دينه منه، وليس أقل دينا وورعا منه، ولو نفذ هذا الميزان الذاتي لانهارت الإشاعة وانهار الإفك من جذوره.

رابعا: ألا يتدخل الهوى إطلاقا في قضية النقل للإشاعة والمساهمة فيها، وهنا صورتان متنافرتان لاتباع الهوى في الإفك، وللتبرؤ منه، والصورتان هما لأختين مسلمتين شقيقتين، الأولي هي زينب بنت جحش ﵂، والثانية: لأختها حمنة بنت جحش، فقد أورد المقريزي عن زينب هذا الحوار بينهما وبين رسول الله ﷺ: قالت: (حاشا سمعي وبصري، ما علمت عليها إلا خيرا، والله ما أكلمها

وإني لمهاجرتها، وما كنت أقول إلا الحق) [١].

وأن تستطيع ضرة أن تكتم هواها فلا تمضي في الإشاعة يدل على المستوي العظيم الذي بلغته هذه المرأة المسلمة والأفق العالي الذي ارتقت عليه. وهذا ما دعا عائشة رضي الله عنها أن تبرئ ساحة زينب من ولوغها في هذه الفرية.

تقول رضي الله عنها: (ما كان أحد يساميني عند رسول الله ﷺ إلا زينب بنت جحش) فقد وضعتها في موقعها الصحيح من طبيعة المنافسة مع عائشة رضي الله عنها، لكنها مع ذلك لم تجد حرجا من الثناء عليها في هذا الموقف فقالت:

(أما زينب فقد عصمها الله بدينها فلم تقل شيئا)

أما الموقف الثاني، فهو موقف أختها حمنة التي انطلقت في الإشاعة تنقلها من بيت إلى بيت، ولا شيء يقف في وجهها، وذلك ثأرا لأختها زينب.

تقول عائشة رضي الله عنها:

(أما أختها حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادني لأختها فشقيت بذلك).

ولا نتمالك من الإعجاب العظيم بعائشة رضي الله عنها؛ إذ استطاعت أن تفصل بين الموقفين للأختين الشقيقتين، ولم تحمل زينب شيئا من وزر أختها حمنة.

خامسا: موقف المفترى عليه، هو أثقل الأدوار وأضخمها في حديث الإفك.

(١) إمتاع الأسماع، للمقريزي.

والمنهج الذي يجب أن يسود في هذا الصدد هو ألا يقابل الافتراء بافتراء آخر، ولا تقابل الإشاعة المؤتفكة بإشاعة أخري، وأن يتمالك الأخ المفتري عليه فلا يطلق لسانه في أعراض الآخرين ولو اعتدي عليه حتى تتم براءته وتبرئته، هو موقف أصيل ندعو إليه هذا الأخ في هذا المجال، ونلحظ موطن القدوة من العناصر الثلاثة الذين نيل من عرضهم في حديث الإفك:

أولهم: محمد رسول الله ﷺ وهو سيد الأمة البشرية، وهو الحاكم والقائد، وبيده السلطة، وبإشارة واحدة منه يمكنه أن ينهي حياة الوالغين في عرضه، ومع ذلك لم يملك في هذا الأمر - بعد أن استشار كبار أصحابه - إلا أن يخطب في المسلمين قائلا على المنبر بعد أن حمد الله وأثنى عليه:(**أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيرا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيرا، وما يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي**).

وعندما وقعت الأزمة بين الفريقين - الأوس والخزرج - لم يكن ليملك ﷺ إلا أن يكون حكما بينهما، رغم أن أحد الفريقين يدافع عن الوالغين في عرض عائشة رضي الله عنها والآخر يهاجمهم، ومع ذلك فقد أرض الفريقين ولم يتحيز لأحدهما؛ لأنه لا يملك البينة ليرد بها على الفريق المتهم. وحتى عندما تجاوز صفوان رضي الله عنه في ثورته لنفسه وضرب حسان ابن ثابت على اتهامه لم يسنده رسول الله ﷺ من الخلف ويشجعه على تجاوزه قبل صدور البينة مع أنه يبرئ أحب الناس إليه عائشة رضي الله عنها، وقد حضر حسان وصفوان عند رسول الله ﷺ ولنستمع إلى تلك المحاكمة الهادئة للجندين المتجاوزين:

(قال صفوان بن المعطل: يا رسول الله، آذاني وهجاني فاحتملني الغضب فضربته، فقال رسول الله ﷺ لحسان:(**أحسن يا حسان، أتشوهت على قومي أن هداهم الله للإسلام**) ثم قال:(**أحسن يا حسان في الذي أصابك**) قال: هي لك يا رسول الله.

قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن إبراهيم: أن رسول الله ﷺ أعطاه عوضا عنها... وأعطاه سيرين - أمة قبطية - فولدت له عبد الرحمن ابن حسان).

وهكذا كلفت ضربة صفوان لحسان أرضا وجارية وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت بعد عفوه عن صفوان بن المعطل، وكان هذا العطاء لمن ينشد الشعر في اتهام زوجته ويمضي في الإشاعة دون توقف.

وثانيهم: اهتز أبو بكر رضي الله عنه وزوجه أم رومان، وقد نزل بهم من البلاء ما لم ينزل بمسلم، وأقصي ما قالته أم عائشة التي تعرض عرضها للألم والإهانة:

أي بينة، خفضي عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.

ولم يتمالك أبو بكر رضي الله عنه أن يقول:

(ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر، والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية حيث لا نعبد الله، فيقال لنا في الإسلام!!).

وثالثهم: عائشة رضي الله عنها التي لم تنته عن البكاء حتى ظنت أن البكاء سيصدع كبدها، وحين وجهت بالأمر من رسول الله ﷺ فقالت:

(إني والله قد علمت أنكم سمعتم بهذا الحديث، فوقع في أنفسكم

فصدقتم به، فلئن قلتم لكم: إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر يعلم الله أني منه بريئة لتصدقنني، وإني والله لا أجد لي مثلا إلا أبا يوسف إذ يقول:{فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ} [يوسف: ١٨].

إنها مواقف لا يحمل لها التاريخ مثيلا من أطهر أهل الأرض يوصمون بشرفهم وعرضهم، ومع ذلك لم يخرج أحد منهم عن طوره ولا أطلق لسانه في عرض أحد، وضبط كل واحد منهم أعصابه، وأما الذي خرج عن طوره فهو صفوان بن المعطل ﵁، وضرب حسان بالسيف، وكاد الأمر أن يستفحل لولا أن عالجه رسول الله ﷺ.

إنه أدب الإسلام العظيم مع الذين يرددون الإشاعة، ويسيرون في الإفك قبل أن تعرف أنها إفك أو إشاعة.

سادسا: والموقف الأخير الذي نستخلصه من حديث الإفك هز عقوبة المغترين اللاغطين المثيرين للفتنة، فلا يكفي أن تثبت براءة المتهم، ولا يكفي أن تدفع القيادة عنها مقالة السوء وانتهى الأمر.

بل لا بد في الصف المسلم من العقوبة الصارمة مع من يثير الإشاعة ويسعى في نشرها بعد التثبت منها. وما تعانيه الحركة الإسلامية اليوم هو إهمال ملاحقة مثير الإشاعة وناقل الإفك، وبذلك لا تنتهي الجماعة من فتنة إلا وتقع في أخري، ويكفي أن نعلم أن حكم الإسلام كان في هؤلاء الثلاثة الذين ساروا في الإفك - مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش - أن أقيم عليهم حد القذف ثمانين جلدة، وإن كانت بعض الروايات تشير إلى أن هذا الحد طبق فيما بعد، ولم ينفذ عليهم؛ لأنهم خاضوا في التهمة قبل نزول الحدود.

والحديث عن هذه السمة يأتي في هذه المرحلة؛ لأن تاريخ الدعوة لم يشهد مثيلا لها من قبل، وفي الصف المسلم بالذات، وطبيعة المرحلة إذن هي أن الإشاعة تسري حين يضعف البناء الداخلي ويستجيب لها، لكن عندما تنشغل الأمة بالجهاد والمواجهة، فقلما تستطيع الإشاعة أن تفعل فعلها في النفوس.

من الفوائد والآثار الإيمانية:

١. هذه الحادثة على ما فيها من شدة وألم على رسول الله ﷺ سيد الأولين والآخرين، وعلي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وكانت في وقتها لم تبلغ العشرين سنة من عمرها المبارك، لأن النبي ﷺ بني بها بعد الهجرة، وكانت في التاسعة، وعلي أبيها الصديق رضي الله عنه أفضل ولي لله بعد الأنبياء والمرسلين، وعلي أمها أم رومان رضي الله عنها، وعلي صفوان بن المعطل رضي الله عنه الذي شهد له رسول الله ﷺ بأنه ما علم عنه إلا خيرا وقد رزقه الله عز وجل الشهادة بعد ذلك، وعلي كل مؤمن يتألم لألم رسول الله ﷺ فما يملك المؤمن نفسه عن البكاء، ولا يدري هل يبكي على رسول الله ﷺ الذي اتهم في عرضه وهو أشرف الخلق وأطيب البشر، أم على أم المؤمنين التي أحبها رسول الله ﷺ وكانت أحب نسائه إليه، وما كان الله عز وجل يرزق رسوله محبتها إلا لطيبها وشرفها، كيف لا وهي من أطيب بيوت قريش البيت الذي آمن كله أبوها وجدها وإخوتها والله عز وجل العليم الخبير يقول بعد أن انصهر المؤمنون في جحيم هذه الحادثة أكثر من خمسين يوما:{لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} [النور: ١١]. فإن كان فيه شدة وألم ففيها من الدروس والعبر والتربية للأمة ما يفوق هذا الشر بكثير، والذين ابتلوا بهذا البلاء أجرهم عند الله عز وجل الذي لا يظلم مثقال ذرة:

(وما ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا) [1].

فكم ارتفعت عائشة ﵂ حين نزل ببراءتها قرآن يتلى إلى يوم القيامة، وكانت غاية ما تتمناه أن يري رسول الله ﷺ رؤيا ببراءتها فمن اتهمها بعد ذلك بما برأها الله عز وجل منه فقد كفر بكتاب الله المنزل، وما أشقي الشيعة بعقائدهم الباطلة فيها وفي أبيها ﵁، وإنما كان هذا الحدث فتنة ظهر بها نفاق المنافقين وإيمان المؤمنين.

٢. والذي تولي كبره في هذا الاتهام الباطل بشره الله ﷻ في الآخرة بعذاب عظيم، والمؤمنون الذين تهاونوا بنقل حديث الإفك وظنوه أمرا هينا أدبهم الله ﷻ وطهرهم بإقامة الحد عليهم، فكانوا عبرة لغيرهم من المؤمنين، فكم حدث من شر وبلاء لاستصغار الذنوب والتهاون بها، وقد كان من نتائج هذا الحادث حدوث فتنة بين الأوس والخزرج كادوا يقتتلون ولكن الله سلم، وكان يمكن أن تأتي تشريعات تحريم القذف وحده وتحريم نقل الأخبار التي لم يتثبت منها بدون هذه الحادثة، ولكنها لم تستقبل بمثل ما استقبلت به هذه الآيات بعد الشدة والمنحة، فهذه تربية ربانية للأمة المشرفة تربية بالبلاء والمحنة، فيزداد بها أهل الإيمان إيمانا ويظهر بها النفاق وأهله. وفيها أيضا بيان كيف يأتي الله ﷻ بالفرح والسرور بعد الشدة والبلاء فحين بلغ الأمر مداه من الشدة والابتلاء وتحيرت الصديقة وأبوها وأمها ﷺ بماذا يجيبون أتاهم الله ﷻ بما تقر به أعينهم من الوحي الصادق على رسول الله ﷺ، فنزل كالغيث الذي جاء بعد القحط والشدة.

---

(١) رواه الترمذي وأحمد.

٣. قال الزمخشري: ومعني كونه خيرا لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم، لأنه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة، بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسلية له، وتنزيه.

٤. قال ابن القيم - رحمه الله -: فما بال رسول الله ﷺ توقف في أمرها وسأل عنها واستشار. وهو أعرف بالله وبمنزلته عنده وبما يليق به، وهلا قال: سبحانك هذا بهتان عظيم كما قال فضلاء الصحابة. فالجواب: أن هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سببا لها وامتحانا وابتلاء لرسوله ﷺ ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقواما، ويضع بها آخرين، ويزيد الله الذين اهتدوا هدي وإيمانا ولا يزيد الظالمين إلا خسارا، واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس عن رسول الله ﷺ الوحي شهرا في شأنها ولا يوحي إليه في ذلك شأن لتتم حكمته التي قدرها وقضاها وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون إيمانا وثباتا على العدل والصدق وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته والصديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكا ونفاقا، ويظهر لرسوله وللمؤمنين سرائرهم ولتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها، وتتم نعمة الله عليهم ولتشدد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها والافتقار إلى الله، والذل له، وحسن الظن به، والرجاء له و ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأس من حصول النصرة والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا وفّت هذا المقام حقه، لما قال لها أبواها: قومي إليه وقد أنزل الله عليه براءتها، فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي. وأيضا فكان من حكمة حبس الوحي شهرا أن القضية محصت وتمحضت، واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافي الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته والصديق وأهله

وأصحابه والمؤمنون، فورد عليهم ورد الغيث على الأرض أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع وألطفه، وسروا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء، فلو أطلع الله رسوله على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على الفور بذلك لفاتت هذه الحكم وأضعافها، بل أضعاف أضعافها. وأيضا فإن الله سبحانه وتعالى أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه والرد على أعدائه وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا ينسب إليه بل يكون هو وحده المتولي كذلك الدفاع لرسوله وأهل بيته [(١)].

وقال الحافظ: وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم:

- جواز الحديث عن جماعة ملفقا مجملا.
- وفيه مشروعية القرعة حتى بين النساء، وفي المسافرة بهن، والسفر بالنساء حتى في الغزو.
- وجواز حكاية ما وقع للمرء من الفضل ولو كان فيه مدح ناس وذم ناس، إذا تضمن بذلك إزالة توهم النقص عن الحاكي إذا كان بريئا عند قصد نصح من يبلغه ذلك لئلا يقع فيما وقع من سبق، وأن الاعتناء بالسلامة من وقوع الغير في الإثم أولي من تركه يقع في الإثم وتحصيل الأجر للموقوع فيه.
- وفيه استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام.
- وأن الهودج يقوم مقام البيت في حجب المرأة.

(١) زاد المعاد.

- وجواز ركوب المرأة الهودج على ظهر البعير، ولو كان ذلك مما يشق عليه، حيث يكون مطيقا لذلك.
- وفيه خدمة الأجانب للمرأة من وراء الحجاب.
- وجواز تستر المرأة بالشيء المنفصل عن البدن.
- وصيانة المال ولو قل، للنهي عن إضاعة المال، فإن عقد عائشة لم يكن من ذهب ولا جوهر.
- وتغطية المرأة وجهها عن النظر الأجنبي وإطلاق الظن على العلم.
- وفيه البحث عن الأمر القبيح إذا أشيع وتعرف صحته وفساده بالتنقيب على من قيل فيه هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه أو يقرب منه.
- واستصحاب حال من اتهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفا بخير. إذا لم يظهر عند البحث ما يخالف ذلك.
- وفيه استعمال: (لا نعلم إلا خيرا) في التزكية، وأن ذلك كاف في حق من سبقت عدالته ممن يطلع على خفي أمره.
- وفيه أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج، وفضل من يفوض الأمر لربه، وأن من قوي على ذلك خف عنه الهم والغم كما وقع في حالتي عائشة قبل استفسارها عن حالها وبعد جوابها والله المستعان.
- وفيه الحث على الإنفاق في سبيل الخير خصوصا في صلة الرحم ووقوع المغفرة لمن أحسن إلى من أساء إليه، أو صفح عنه.
- وفيه التسبيح عند التعجب، واستعظام الأمر، وذم الغيبة، وذم سماعها، وزجر من يتعاطاها، لا سيما إذا تضمنت تهمة المؤمن، بما لم يقع منه وذم إشاعة الفاحشة.

قصة الإفك: فإنها تُعد حلقة فريدة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين. ولقد كانت هذه الأذية أشد في وقعها على نفسه ﷺ من كل تلك المحن السابقة، وتلك هي طبيعة الشر الذي يصدر من المنافقين، فهو دائما يكون أقصى من غيره وأبلغ في المكيدة والضرر، إذ تكون الفرص والأسباب خاضعة لهم أكثر من غيرهم. وخبر الإفك صورة فريدة للأذى الذي تفرد به المنافقون.

وإنما كانت هذه القصة أبلغ من غيرها في إيذاء النبي ﷺ، لأن كل ما كان قد كابده قبل ذلك من المحن التي تحدثنا عن طرف منها، أمور كان يتوقعها، وقد وطن نفسه لقبولها وتحملها، بل كان منها على ميعاد في طريق الدعوة، أما هذه فقد فوجئ بها.. لأنها ليس مما قد اعتاده، أو توقعه. إنها اليوم شيء آخر.. إنها شائعة، لو صحت لكانت طعنة نجلاء في أخص ما يعتز به، إنسان، أخص ما يتصف به الشرف والكرامة، وما الذي أدراه أنها شائعة صحيحة أو باطلة؟!.. من هنا كانت هذه الأذية أبلغ في تأثيرها من كل ما عداها، لأنها جاءت لتلقي بشعوره النفساني في اضطراب مثير لا مناص منه. ومع ذلك فلو أن الوحي سارع إلى كشف الحقيقة وفضح إفك المنافقين لكان في ذلك مخلصًا من هذا الاضطراب والشكوك المثيرة، ولكن الوحي تلبث أكثر من شهر لا يعلق على ذلك، فكان ذلك مصدرا آخر للقلق والشكوك.

ومع ذلك فإن محنة الإفك هذه، جاءت منطوية على حكمة إلهية اتجهت إلى إبراز شخصية النبي ﷺ، وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يلتبس بها. إن معنى النبوة في حياته ﷺ كان من المحتمل أن يبقي مشوبا، في وهم بعض المؤمنين به، والكافرين، على السواء، لو لم تأت حادثة الإفك هذه لتهز شخصية النبي ﷺ، هزا قويا

يفصل إنسانيته العادية عن معني النبوة الصافية فيه، ثم لتجلي معني النبوة والوحي تجلية تامة أمام الأنظار والأفكار حتى لا يبقي أي مجال التباس بينه وبين أي معني من المعاني النفسية أو الشعورية الأخرى [١].

لقد فاجأت هذه الشائعة سمع النبي ﷺ، وهو في طور من إنسانيته العادية، يتصرف ويتأمل ويفكر كأي أحد من الناس ضمن حدود العصمة المعروفة للأنبياء والمرسلين، فاستقبلها كما يستقبل مثلها أي بشر من الناس، ليس له اطلاع على غيب مكنون ولا ضمير مجهول، ولا قصد ملفق كاذب. فاضطرب كما يضطربون، وشك كما يشكون، وأخذ يقلب الرأي على وجوهه، ويسند في ذلك بمشورة أولي الرأي من أصحابه.

وكان من مقتضى الحكمة الإلهية في إبراز هذا الجانب الإنساني المجرد فيه ﷺ، أن يتأخر الوحي كل هذه الفترة التي تأخرها، كي تتجلى للناس حقيقتان، كل منهما على غاية من الأهمية: أما الحقيقة الأولي، فهي أن النبي ﷺ لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشرا من الناس، فلا ينبغي لمن آمن به أن يتصور أن النبوة تجاوزت به حدود البشرية، فينسب إليه من الأمور أو التأثير في الأشياء ما لا يجوز نسبته إلا لله وحده.

وأما الحقيقة الثانية، فهي أن الوحي الإلهي ليس شعورا نفسيا ينبثق من كيان النبي ﷺ كما أنه ليس شيئا خاضعا لإرادته أو تطلعه وأمنياته. إذ لو كان كذلك، لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة من يوم ميلادها ويريح نفسه من ذيولها ونتائجها، ويجعل مما يعتقد من الخير والاستقامة في أهله قرآنا يطمئن به أصحابه المؤمنين،

(١) انظر فقه السيرة للبوطي، نساء لهن شأن، وقفات تربوية، مفتاح العناية، سبل الهدى والرشاد، السيرة النبوية لابن هشام.

ويسكت آخرين من أصحاب الفضول. ولكنه لم يفعل، لأنه لا يملك ذلك.

ولننقل لك ما يقوله في بيان هذه الحقيقة الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم) يقول: (ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة ﵂، وأبطأ الوحي وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: (إني لا أعلم عنها إلا خيرا) ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب ومضي شهر بأكمله والكل يقولون: (ما علمنا عليها من سوء)، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: (يا عائشة أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله).

هذا كلامه بوحي ضميره وهو كما ترى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلامات حتى نزل صدر سورة النور معلنا براءتها ومصدرا الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه - لو أن أمر القرآن إليه - أن يتقول هذه الكلمات الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسبها إلى الوحي السماوي، لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله:{وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ} [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

ولقد كانت السيدة عائشة ﵂، أول من تجلت لها هاتان الحقيقتان، حتى ذهبت في توحيدها وعبوديتها لله وحده مذهبا أنساها ما سواه

ومن سواه، فلذلك أجابت أمها حينما طلبت إليها أن تقوم فتشكر النبي ﷺ قائلة: (لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي).

بذلك يتضح أن المحافظة على الأعراض وقاية للبشرية من الأمراض فهل وعينا؟!!.

* * *

الموقف الرابع والعشرون

(٢٤)

الحصار في الأحزاب

الموقف الرابع والعشرون:
الحصار في الأحزاب

وتسمى بغزوة الخندق، وقد كانت في شوال سنة خمس على ما جزم به ابن إسحاق وعروة بن الزبير وقتادة والبيهقي وجمهور علماء السيرة، وقيل: في سنة أربعة من الهجرة. وقد تفرد به موسى بن عقبة ورواه عنه البخاري وتابعه في ذلك مالك [١].

* **سببها:** أن نفرا من زعماء اليهود من بني النضير خرجوا حتى قدموا مكة، فدعوا قريشا إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: سنكون معكم حتى نستأصله، وقالوا لهم إن ما أنتم عليه خير من دين محمد ﷺ، ففيهم نزل قول الله تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا} [النساء: ٥١ - ٥٢]، فاتفقوا مع قريش على حرب المسلمين وتواعدوا لذلك.

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان فدعوهم إلى مثل ما دعوا قريشا إليه، ولم يزالوا بهم حتى وافقوهم على ذلك ثم التقوا ببني فزارة وبني مرة، وتم لهم مع هؤلاء جميعا تواعد في الزمان والمكان لحرب رسول الله ﷺ [٢].

* **تهيؤ المسلمين للحرب،** فلما بلغ رسول الله ﷺ الخبر وسمع بخروجهم من مكة، ندب الناس وأخبرهم خبر عدوهم وشاورهم في الأمر، فأشار عليه سلمان الفارسي بالخندق، فأعجب ذلك المسلمين (والخندق مما لم يكن يعلمه العرب من وسائل الحرب) فخرجوا من

---

(١) فتح الباري.
(٢) الطبقات، سيرة ابن هشام.

المدينة وعسكر بهم رسول الله ﷺ في سفح جبل سلع فجعلوه خلفهم، ثم هبوا جميعا يحفرون الخندق بينهم وبين العدو. كان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف، وعدد ما اجتمع من قريش والأحزاب والقبائل الأخرى عشرة آلاف.

تشديد الحصار على المسلمين وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف:

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها، واشتد الكرب على المسلمين، وتأزم الموقف، وقد تحدث القرآن الكريم عن حالة الحرج والتدهور التي أصابت المسلمين ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزع وخوف، وفزع في تلك المحنة الرهيبة أصدق وصف، حيث قال تعالى:{إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾} [الأحزاب: ١٠ - ١١]. وكان ظن المسلمين بالله قويًا، وقد سجله القرآن الكريم بقوله تعالى:{وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾} [الأحزاب: ٢٢].

وأما المنافقون فقد انسحبوا من الجيش، وزاد خوفهم حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وطلب البعض الآخر الإذن لهم بالرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة، فقد كان موقفهم يتسم بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت روايات ضعيفة تحكي أقوالهم في السخرية والإجحاف والتخذيل، ولكن القرآن الكريم يتكفل بتصوير ذلك أدق تصوير.

والآيات هي:{ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾} [الأحزاب: ١٣ - ٢٠].

إن الآيات السابقة أشارت إلى النفاق وما تولد عنه من القلق في النفوس، والجبن في القلوب، وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد بل يتبعه العمل المخذل المرجف، فهم يستأذنون الرسول ﷺ للانصراف عن ميدان العمل، والقتال بحجج واهية؛ زاعمين أن بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم.

واشترك الجميع في حفر الخندق، ولكن المنافقين لم يشتركوا، وتسللوا لواذا وأثناء الحفر اعترضهم صخرة شقت عليهم، وكسرت حديدهم، فهبط النبي صلي الله عليه وسلم مع سلمان فضرب الصخرة ضربة فصدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها،

فكبر النبي صلي الله عليه وسلم تكبير فتح، وكبر المسلمون، ثم ضربها رسول الله صلي الله عليه وسلم فصدعها ثم ضربها الثالثة فكسرها، وبشرهم رسول الله صلي الله عليه وسلم بقصور الحيرة ومدائن كسرى، وأرض الروم وقصور صنعاء، وسخر الساخرون وفي ذلك يقول ربنا:{ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾} [الأحزاب: ١٢]، واشتد الحصار على المدينة وطال نحو شهر وقل الطعام حتى أن المسلمين ربطوا على بطونهم من شدة الجوع، وتمكن جماعة من المشركين من دخول المدينة، قال تعالى:{ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا } [الأحزاب: ١٠ - ١١].

إلا أنه يقوي اليقين والإيمان في قلوب المسلمين، فأخذ الخلاف يدب بين المتحالفين، واهتزت الثقة بينهم، ثم جاءت جنود الله التي لا يعلمها إلا هو، جاءت العواصف الشاتية في ليلة شديدة البرد، فقلبت القدور ومزقت الخيام، وبث الرعب في الإنسان والحيوان، وهرولوا مزعورين، قال تعالى:{وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾} [الأحزاب: ٢٥].

إن نصر الله لا يتبدل، ويتنزل على المتواكلين والمقصرين، وإنما يتنزل على الذين استفرغوا جهدهم في مقاومة الباطل، فهؤلاء يدافع الله عنهم وينصرهم على أعدائهم مهما تكن قوة هؤلاء الأعداء، وفي يوم الأحزاب خير برهان على دفاع الله عن عبادة المؤمنين.

* * *

الموقف الخامس والعشرون

(٢٥)

(غـدر يهــود – بني قريظة)

الموقف السادس والعشرون:

[غدر يهود ـ بني قريظة]

مع أن المسلمين أخذوا بكافة الاحتياطات في تأمين جبهتهم الداخلية، ومحاولة الدفاع عن الإسلام والمدينة من جيش الأحزاب الزاحف، إلا أن سنة الله الماضية لا نصر إلا بعد شدة، ولا منحة إلا بعد محنة، وكلما اقترب النصر زاد البلاء والامتحان، وقد ازدادت محنة المسلمين في الخندق لأمور:

نقض اليهود من بني قريظة العهد ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف:

كان المسلمون يخشون غدر يهود بني قريظة الذين يسكنون في جنوب المدينة فيقع المسلمون حينئذ بين نارين، اليهود خلف خطوطهم، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم، ونجح اليهودي زعيم بني النضير في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضم مع الأحزاب لمحاربة المسلمين.

وسرت الشائعات بين المسلمين بأن قريظة قد نقضت عهدها معهم، وكان الرسول ﷺ يخشى أن تنقض بنو قريظة العهد الذي بينهم وبينه؛ لأن اليهود قوم لا عهد لهم ولا ذمة، ولذلك انتدب النبي ﷺ الزبير بن العوام (رجل المهمات الصعبة) ليأتيه من أخبارهم فذهب الزبير،

فنظر ثم رجع فقال: يا رسول الله: رأيتهم يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم. وبعد أن كثرت القرائن الدالة على نقض بني قريظة للعهد، أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير - رضي الله عنهم - وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا

فالحنوا لي لحنًا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا.

* موقف الرسول صلي الله عليه وسلم مع صفية:

تزوجها رسول الله ﷺ، وأعتقها من النار، وجعلها أمًّا للمؤمنين، وزوجًا في الجنة لخاتم الأنبياء والمرسلين، وقد أكرمها رسول الله ﷺ غاية الإكرام، وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب، وقد بلغ من أدبها أنها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته، فكانت تضع ركبتها على ركبته وتركب.

وهذه صفية رضي الله عنها تحدثنا عن خلق رسول الله ﷺ فتقول: ما رأيت أحدًا قط أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ، لقد رأيته ركب بي في خيبر، وأنا على عجر ناقته ليلاً، فجعلت أنعس، فتضرب رأسي مؤخرة الرحل، فيمسني بيده، ويقول:**(يا هذه مهلاً)**.
وعن صفية رضي الله عنها أنها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ من صفية، نحن أزواجه وبنات عمه، فدخل عليها ﷺ فأخبرته فقال:**(ألا قلتِ: وكيف تكونان خير مني وزوجي محمد وأبي هارون، وعمي موسى)**.

لقد تأثرت صفية بأخلاق رسول الله ﷺ، وأصبح ﷺ أحب إليها من أبيها وزوجها والناس أجمعين، بل أصبح أحب إليها من نفسها، تفديه بكل ما تملك حتى نفسها، وإذا ألم به مرض تمنت أن يكون فيها، وأن يكون رسول الله ﷺ سليمًا معافى، فقد أخرج ابن سعد - رحمه الله - بإسناد حسن عن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: اجتمع نساؤه ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، فقالت صفية رضي الله عنها: إني والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمز بها أزواجه، فأبصرهن رسول الله ﷺ فقال:**(مضمضن)**،

فقلن: من أي شيء؟ فقال:**(من تغامزكن بها، والله إنها لصادقة)**.

ومما له صلة بزواج رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي، حراسة أبي أيوب الأنصاري لرسول الله ﷺ يوم أن دخل بصفية، فعن ابن إسحاق أنه قال: ولما أعرس رسول الله ﷺ بصفية بخيبر، أو ببعض الطريق.. فبات بها رسول الله في قبة له، وبات أبو أيوب خالد بن زيد أخو بني النجار متوشحًا سيفه، يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ، فلما رأى مكانه قال:**(ما لك يا أبا أيوب؟)** قال:
يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك، فسر رسول الله ﷺ بعمله الذي ينبئ على غاية الحب، والإيمان، وقال:**(اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحرسني)**.

وكان زواج رسول الله ﷺ بصفية فيه حكمة عظيمة، فهو لم يرد بزواجه منها قضاء شهوة، أو إشباعًا لغريزة، كما يزعم الأفاكون، وإنما أراد إعزازها وتكريمها، وصيانتها من أن تفترش لرجل لا يعرف لها شرفها ونسبها في قومها، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها، قد قتل أبوها من قبل، وزوجها وكثير من قومها، ولم يكن هناك أجمل مما صنعه الرسول معها، كما أن فيه رباط المصاهرة بين النبي واليهود عسى أن يكون هذا ما يخفف من عدائهم للإسلام والانضواء تحت لوائه والحد من مكرهم وسعيهم بالفساد، وكانت أم المؤمنين صفية عاقلة وحليمة، وصادقة، يروى أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود، فبعث إليها فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة،

وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا فأنا أصلها، فقبل منها، ثم قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشيطان، فقالت لها: اذهبي فأنت حرة.

وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين للهجرة في زمن معاوية، وقيل سنة اثنتين وخمسين رضي الله عنها وأرضاها.

وقال القاسمي: وبتمام تلك الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة، ولم يبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها، وهم الذين كانوا السبب في إثارة الأحزاب.

قال بعض العلماء: يا لله! ما أسوأ عاقبة الطيش! فقد تكون الأمة مرتاحة البال هادئة الخواطر، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح فيجلب عليهم الشرور ويشتتهم من ديارهم، وهذا ما حصل لليهود في الحجاز فقد كان بينهم وبين المسلمين عهودا يأمن بها كل منهم الآخر، ولكن اليهود لم يوفوا بتلك العهود حسدا منهم وبغيا، فتم عليهم ما تم، فإن الله لا يصلح أعمالهم :{وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا} [الأحزاب: ٢٧]، أي وقد شاهدت بعض مقدوراته، فاعتبروا بغيرها.

ليس في قول النبي ﷺ:**(لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة)** وعدم تعنيف النبي ﷺ لمن صلي في الطريق، ولمن لم يصل حتى فات وقت العصر عملا بظاهر الأمر، دليل على أن الحق يتعدد، وأن كل مجتهد مصيب في اجتهاده، ولكن فيه معذرة من بذل جهده، وإن كان اجتهاده خطأ فالحق واحد لا يتعدد، ومثل ذلك قوله ﷻ:{فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا} [الأنبياء: ٧٩]، ويشهد له أيضا قوله ﷺ: **(إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد)**.

فالمجتهد مأجور على كل حال، إما أجرا كاملا أو أجرا ناقصا، وهو معذور في خطئه مرفوع عنه الإثم لأنه لم يقصد مخالفة الحق، وقد بذل جهده ووسعه في الوصول إليه. وقد شاع استدلال البعض بهذه القصة في تصويب جميع الاجتهادات وجميع الأقوال المنسوبة إلى العلماء، وبذلك يسوغون لأنفسهم التقييد للأئمة، وعدم معرفة المسائل المختلف فيها بأدلتها الشرعية، حتى صار الأصل هو التقليد، وانقطع السند بينهم وبين رسول الله ﷺ.

قال الحافظ: ثم الاستدلال بهذه القصة على أن كل مجتهد مصيب على الإطلاق ليس بواضح، وإنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه واجتهد، فيستفاد منه عدم تأثيمه، وحاصل ما وقع في القصة أن بعض الصحابة حملوا النهي الأول وهو ترك تأخير الصلاة عن وقتها. واستدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق، والبعض الآخر حملوا النهي على غير الحقيقة، وأنه كناية على الحث والاستعجال والإسراع إلى بني قريظة، وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد، لأنه ﷺ لم يعنف أحدا من الطائفتين، فلو كان هناك إثم لعنف من أثم.

ورد في مناقب سعد بن معاذ ﵁ أحاديث صحيحة صريحة في علو درجته وارتفاع منزلته، كيف لا وهو سيد الأنصار، وأثبت له ذلك ﷺ عندما قال:**(قوموا إلى سيدكم)**.

* * *

(٢٦)

يــوم حنيـن

الموقف السابـع والعشرون:

يوم حنيـن

حيث كانت هذه الغزوة في السادس من شوال سنة ٨ هـ أي بعد فتح مكة بنحو أسبوعين:

أسباب الهزيمة وعوامل النصر في حنين:

أ ـ أسباب الهزيمة:

وقعت الهزيمة في الجولة الأولى لعدة أسباب منها:

١ ـ أن شيئًا من العجب تسرب إلى قلوب المسلمين، لما رأوا عددهم، فقد قال رجل منهم: لن نغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي ﷺ فكانت الهزيمة.

٢ ـ خروج شبان ليس لديهم سلاح أو سلاح كافٍ، وإنما عندهم حماس وتسرع.

٣ ـ أن عدد المشركين كان كثيرًا بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

٤ ـ أن مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حنين فتهيأ هنالك ووضع الكمائن والرماة في مضايق الوادي وعلى جوانبه، وفاجؤوا المسلمين، برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت.

٥ ـ كان العدو مهيأ ومنظما ومستعدا للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صفوف رُئيت: صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك ثم الغنم ثم النعم.

٦ ـ وجود ضعاف الإيمان الذين أسلموا حديثًا في مكة، ففروا فانقلبت أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سببا لوقوع الخلل وهزيمة غيرهم.

ب - عوامل النصر:

كانت عوامل النصر في حنين عدة أسباب منها:

١ - ثبات الرسول في القتال وعدم تراجعه، مما جعل الجنود يثبتون ويستجيبون لنداء القائد الثابت.

٢ - شجاعة القائد، فالرسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب، بل تقدم نحو عدوه راكبًا بغلته، فطفق يركض ببغلته قِبَل الكفار والعباس آخذ بلجام البغلة يكفها ألا تسرع.

٣ - ثبات قلة من المسلمين معه وحوله حتى جاء الذين تولوا وأكملوا المسيرة؛ مسيرة الثبات والبر والقتال حتى النصر. ونادى:(**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب**).

٤ - سرعة استجابة الفارِّين والتحاقهم بالقتال.

٥ - وقوع الجيش المعادي في خطأ عسكري قاتل، وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلامي بعد فراره، مما أعطى فرصة ثمينة للجيش الإسلامي ليلتقط أنفاسه ويعود إلى ساحة القتال ويستأنف القتال من جديد بقيادة القائد الثابت الشجاع رسول الله ﷺ.

٦ - رمية الحصى، فقد أخذ النبي ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال:(**انهزموا ورب محمد**).

٧ - الاستعانة والاستغاثة بالله عز وجل، فقد كان الرسول يلح على الله في الدعاء بالنصر على الأعداء.

٨ - إنزال الملائكة في الغزوة ومشاركتهم فيها، وقد سجل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم في سورة التوبة:{وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ } [التوبة: ٢٦].

ثالثًا: الأحكام المستنبطة من غزوة حنين والطائف:

١ - **نزول الآية الكريمة** :{وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ} [النساء: ٢٤]، في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوجات، وقد فرق السبي بينهن وبين أزواجهن، فأوضحت الآية جواز وطئهن إذا انقضت عدتهن، لأن الفرقة تقع بينهن وبين أزواجهن الكفار بالسبي وتنقضي العدة بالوضع للحامل وبالحيض لغير الحامل.

٢ - **منع المخنثين خلقة من الدخول على النساء الأجنبيات:** وكان ذلك مباحًا إذ لا حاجة للمخنث بالنساء، وكان سبب المنع ما رواه البخاري عن زينب بنت أبي سلمة عن أمها أم سلمة، دخل على النبي ﷺ وعندي مخنث فسمعته يقول لعبد الله بن أمية: يا عبد الله، أرأيت إن فتح الله عليك الطائف غدًا، فعليك بابنة غيلان؛ فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، فقال النبي ﷺ:**(لا يدخلن هؤلاء عليكم)**.

وفي هذا المنع حرص النبي ﷺ على سلامة أخلاق المجتمع الإسلامي.

٣ - **النهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ والأجراء ممن لا يشتركون في القتال ضد المسلمين:** وقد ذكر ابن كثير أن رسول الله ﷺ مر يوم حنين بامرأة قتلها خالد بن الوليد والناس متقصفون عليها، فقال رسول الله ﷺ:**(ما كانت هذه لتقاتل)** وقال لأحدهم:**(الحق خالدًا فقل له لا يقتلن ذرية ولا عسيفًا)**، وفي رواية:**(فقل له إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا)**.

٤ - **تشريع العمرة من الجعرانة:** أحرم النبي ﷺ بعمرة من الجعرانة، وكان داخلا إلى مكة وهذه هي السنَّة لمن دخلها من طريق الطائف وما يليه، وأما ما يفعله كثير مما لا علم عندهم من الخروج

من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة ثم يرجع إليها فهذا لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا استحبه أحد من أهل العلم، وإنما يفعله عوام الناس زعموا أنه اقتداء بالنبي وغلطوا، فإنه إنما أحرم منها داخلا إلى مكة ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها (١).

٥ - إرشاده للأعرابي بأن يصنع في العمرة ما يصنع في الحج:

قال يعلى بن منبه: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو بالجعرانة وعليه جبة، وعليها خلوق - أو قال: أثر صفرة - فقال: كيف تأمرني أصنع في عمرتي؟ قال: وأُنزل على النبي ﷺ الوحي، فستر بثوب، وكان يعلى يقول: وددت أني أرى النبي ﷺ وقد أنزل الوحي عليه، قال: فرفع عمر طرف الثوب عنه فنظرت إليه، فإذا له غطيط (قال) فلما سري عنه قال:**(أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصفرة)** - أو قال:**(أثر الخلوق - واخلع عنك جبتك، واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجتك)**.

٥-**من قتل قتيلاً فله سلبه:** قال أبو قتادة: لما كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلا من المشركين، وآخر من المشركين يختله من ورائه ليقتله، فأسرعت إلى الذي يختله فرفع ليضربني وأضرب يده فقطعتها، ثم أخذني فضمني ضمًّا شديدًا حتى تخوفت، ثم ترك فتحلل ودفعته ثم قتلته، وانهزم المسلمون وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس، فقلت له: ما شأن الناس؟ قال: أمر الله، ثم تراجع الناس إلى رسول الله، فقال رسول الله:**(من أقام بينة على قتيل قتله، فله سلبه)**، فقمت: لألتمس بينة قتيلي فلم أر أحدًا يشهد لي.

---

(١) زاد المعاد.

قوله:{وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ} [التوبة: ٢٥] قيل منصوب بمضمر معطوف على : {نَصَرَكُمُ} [التوبة: ٢٥]، أي ونصركم يوم حنين.

قال الشهاب: فيكون عطف :{وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ} [التوبة: ٢٥]، على منوال :**{ملائكته وجبريل}**، كأنه قيل: نصركم الله في أوقات كثيرة، وفي وقت إعجابكم بكثرتكم.

يظهر في تقسيم غنائم هوزان وإعطاء المؤلفة الذين هم حديثو عهد بالإسلام ولم يغنوا غناء المهاجرين والأنصار، وحرمان الذين نصروا رسول الله ﷺ من أول يوم حقارة الدنيا، وكيف أن النبي ﷺ تألف بها أهل الطمع فيها والرغبة في أعراضها، ووكل سادات المهاجرين والأنصار إلى ما في قلوبهم من الإيمان، وإلى ثواب الرحمن، فاختار لكل قوم ما هو أليق بحالهم ورغباتهم وقد خفيت هذه الحكمة على بعض الأنصار فقالوا: (يغفر الله لرسول الله ﷺ) فلما جلاها لهم اطمأنوا لقسمهم ونصيبهم وفرحوا بحظهم، وكفاهم حظا وشرفا وسعادة أن النبي ﷺ يعود معهم إلى المدينة، ويترك بلده وبلد أجداده وأهله وعشيرته.

أما المؤلفة قلوبهم فقد أثر فيهم هذا العطاء حتى قال صفوان بن أمية: ما زال رسول الله ﷺ يعطيني من غنائم حنين، وهو أبغض الخلق إلى، حتى ما خلق الله شيئا أحب إلى منه.

* قال الدكتور أكرم العمري في الأحكام المستنبطة من غزوة حنين: نزول الآية الكريمة :{وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ} [النساء: ٢٤]، في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوجات، وقد فرق السبي بينهن وبين أزواجهن، فأوضحت الآية جواز وطئهن إذا انقضت عدتهن، لأن الفرقة تقع بينهن وبين أزواجهن الكفار بالسبي، وتنقضي العدة بالوضع للحامل وبالحيض

لغير الحامل [١].

- ومنها: أن الإمام إذا استنفر الجيش لزمهم النفير، ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه.
- ومنها: وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس، وهذه إحدى الروايتين عن أحمد، وهي الصواب الذي لا ريب فيه.
- ومنها أن العاجز بماله لا يعذر حتى يبذل جهده ويتحقق عجزه، فإن الله سبحانه إنما نفي الحرج عن هؤلاء العاجزين بعد أن أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم فقال:(**لا أجد ما أحملكم عليه**) فرجعوا يبكون لما فاتهم من الجهاد.

* * *

(١) وقفات تربوية.

(٢٧)

(العسـرة - تـبـوك)

الموقف السابع والعشرون:
[العسرة ـ تبوك]

كادت تزيغ قلوب فريق من الأنصار والمهاجرين، لولا فضل الله ورحمته بهم، ومع هذا فصل الرسول ﷺ من المدينة بجيش عظيم بلغ تعداده ثلاثين ألفا من المجاهدين، وعشرة آلاف من الفرس، واثنى عشر ألف بعير ليلقى به الروم في تبوك [١].

وأقام الرسول ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة لم يلق فيها حربا، ولعل الروم الذين كانوا قد أخذوا للحرب مع المسلمين أهبتها، وأنفقوا فيها من الأموال ما أنفقوا توجسوا خيفة من الهزيمة حين سعي المسلمون إليهم، وهم يعرفون عنهم أنهم يحرصون على النصر أو الشهادة، ويضاف إلى هذا أن رسول الله ﷺ شاور الصحابة في التقدم للقاء الروم - فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن كنت أمرت بالمسير فسر، فقال: لو أمرت ما استشرتكم فيه، قالوا يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث تري، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى، أو يحدث الله لك في ذلك أمرا.

وهذه الغزوة وإن لم يحارب فيها المسلمون الروم أكدت شجاعة المجاهدين، تلك الشجاعة التي كان من ورائها الروح الإسلامية التي تعشق الموت في سبيل الله، والتي ألقت في قلوب المشركين والكافرين - مهما تكن جموعهم - الخوف والهلع، وأثبتت أن القوة الإسلامية أصبح لها مكانة عالمية، وتهابها القوة التي كانت معروفة بسلطانها في العالم كالفرس والروم.

وهذه الغزوة وإن عرفت مواقف شائنة من المنافقين والمخذلين والذين في قلوبهم مرض ولا يريدون لنور الله أن يبدد غياهب الوثنية

(١) تبوك: مكان بين المدينة ودمشق، ويبعد عن المدينة نحو ٦٠٠كم.

والجاهلية، فإنها عرفت مواقف إسلامية رائعة ويزيد من روعتها أنها صدرت في وقت العسرة والشدة، فقد تبارى المسلمون في بذل الأموال لتجهيز المجاهدين، فقد قدم أبو بكر كل ماله، وقد الفاروق نصف ماله، وجهز عثمان بن عفان ثلث الجيش فكان من أكثر الصحابة نفقة، ويروى أنه جاء بألف دينار ففرغها في حجر النبي ﷺ فجعل يقبلها ويقول ﷺ :**(ما ضر عثمان ما فعل بعد هذا اليوم، قالها مرارا).**

أما النساء فقد أتت بكل ما قدرن عليه فكن يلقين في ثوب مبسوط بين يدي النبي ﷺ المسك والمعاضد والخلال والأقرطة والخواتم والخدمات.

وإن كانت تلك الغزوة في عام جدب وفي وقت حر شديد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام ويكرهون الشخوص عنها، وكان العدو فيها كثير العدد، والطريق إليه شاقًا وبعيدًا، وهو إلى هذا له خبرة بالقتال وممارسة متعددة له، فإن التنافس بين المسلمين الإشتراك في هذه الغزوة يعبر في صدق عن حب الجهاد، وتحمل كل المشاق من أجل نصرة دين الله، فلا غرو أن الذين ليس لديهم ما يحملهم للجهاد، وعرف من هؤلاء سبعة اشتهروا بالبكائين، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة، فقال لا أجد ما أحملكم عليه، فولوا يبكون. قال تعالى: {وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾} [التوبة: ٩٢].

وجاء للرسول ﷺ ناس من المنافقين يستأذنون من غير علة فأذن لهم، وقد عاتب الحق سبحانه نبيه بقوله:{عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾} [التوبة: ٤٣].

وأما المعذرون - وهم الذين يعتذرون اعتلالا ولا عذر لهم على الحقيقة - وهؤلاء من الأعراب فاعتذروا فلم يعذرهم الله، قال تعالى : {وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾} [التوبة: ٩٠].

وإذا كان هؤلاء المنافقون الذين اعتذروا وتخلفوا عن الجهاد كاذبين فإن هناك ثلاثة من الذين تخلفوا لم يكن لديهم عذر في التخلف واعترفوا للرسول ﷺ بعد عودته من تبوك؛ فقد قال أحدهم للرسول: والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

وقد نهى الرسول ﷺ الناس عن كلام هؤلاء الثلاثة. فاجتنبهم الناس، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة، ذاقوا فيها مرارة الهجر والعذاب النفسي حتى من زوجاتهم، ولأنهم صدقوا الله في توبتهم وندمهم فقد قبل الله توبتهم وعفا عنهم، قال تعالى:{ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾} [التوبة: ١١٧ - ١١٨].

لقد تاب الله عليهم من هذا الذنب الخاص، ليتوبوا توبة عامة عن كل ما مضى ولينيبوا إلى الله إنابة كاملة في كل ما سيأتي.

إن في يوم العسرة امتحانا لمواقف المؤمنين والمنافقين والذين أخطؤوا واعترفوا بخطئهم، وفي هذه المواقف كلها توجيهات موحية لم كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد.

كلمة على هامش هذه الغزوة:

لقد أخذ الإسلام يستقر في الجزيرة العربية، واستولي سلطانه على الأفئدة والنفوس وهذا ما كانت نصارى الروم تراقبه من بعيد في خوف وقلق. فالرومان، لم يعانقوا النصرانية إيمانا منهم بها، وإنما كانوا قد اتخذوها ذريعة إلى استعمار شعوب تلك المنطقة، ولأجل ذلك تلاعبوا بها كما أرادوا، وغيروا منها وبدلوا، فخلطوا هديها بوثنيتهم وأضافوا إلى ما فيها من الحق الكثير من باطلهم.

والإسلام - وهو الدين الذي تكررت الدعوة إليه على لسان جميع الرسل الأنبياء - إنما جاء ليخرج به الناس عن كل سلطان غير سلطان الله تعالى، فلا يكون لأحد عليهم من سيادة ولا سلطان ولا حكم إلا سلطان الله وحكمه.

وهم - وقد علموا من النصرانية كل حقائقها - أدرى الناس بخطورة هذه الرسالة الأخيرة وما تحمل في طيها من تهديد لحكم الطغاة وسلطان المتسلطين وبغي الباغين.

فلا غرو أن يكون هذا الدين - وقد استقر أمره في الجزيرة العربية - مصدر قلق وتخوف لدى الطغاة الروم وأتباعهم الذين ما دخلوا النصرانية إلا ظاهرا، وما أرادوا من ذلك إلا ضمان بسط سلطانهم على المستضعفين.

فمن أجل ذلك تلقوا خبر فتح مكة ونبأ انتصار الإسلام في الجزيرة العربية بالذعر، ثم أخذوا يجمعون جموعهم بين الشام والحجاز. علهم يقفون في وجه هذا الدين الذي سيكون في انتشاره القضاء عليهم وعلي سلطانهم.

ففي السنة التاسعة بعد الهجرة بلغ رسول الله صلي الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت له جموعًا كثيرة على أطراف الجزيرة بالشام.

ولقد كان من مقتضى هذا الاهتمام لدي الروم، أن يكون الاشتباك بينهم وبين المسلمين عظيما وخطيرا. ولكن حكمة الله عز وجل تشاء أن يكتفي من جهاد المسلمين في هذه الغزوة بالجهد العظيم الذي بذلوه والمشقات الجسيمة التي تحملوها، إذ قطعوا تلك المسافات المضنية بين المدينة وتبوك ذهابا وإيابا، ولقد كانت - كما رأيت - رحلة عجيبة في عذابها وأتعابها ومشاهد العسرة التي فيها.. وما الجهاد الذي أمر الله به؟ هل هو إلا بذل النفس والجهد في سبيل شرعة الله ودينه؟.. إن هذا هو كل ما يريد الله من عباده، ومعاذ الله أن يكون بحاجة من وراء ذلك إلى معونتهم لرد كيد الكافرين أو إدخال معنى الهداية والإيمان في قلوب الجاحدين.

وقد بذل (جيش العسرة) في هذه الغزوة العسيرة المضنية، المال والجهد وضحوا بالراحة في أجمل فرصها، واستبدلوا به العذاب في أقسى صوره وأشكاله. ولقد برهنوا بذلك على صدق إيمانهم بالله ومحبتهم له، فحق لهم النصر والتأييد، وأن يكفيهم الله القتال، برعب من لدنه يقذفه في قلوب أعدائهم، فيتفرقون عنهم ويخضعون لحكم الله فيهم.

وهكذا فقد كان يسر خضوع الروم لحكم الجزية وقيودها، في مقابل العسر الذي تحمله المسلمون مع رسولهم ﷺ في مرضاة ربهم جل جلاله.

ثانيا: العبر ولإحكام:

وإنك لتجد في هذه الغزوة دروسا وأحكاما كثيرة، نجمل منها ما يلي:

١- **(أهمية الجهاد بالمال)**، فالجهاد ضد أعداء الإسلام ليس محصورا بالخروج للغزو، بل ولا يكفي منه ذلك وحده. فحيثما

توقف أمر الجهاد بالقتال والسلاح على نفقات ومال، وجب على المسلمين كلهم أن يقدموا من ذلك ما يقع موقعا من الكفاية، بشرط أن يكون ذلك بنسبة ما يتفاوتون به من كفاية وغنى.

ولقد قرر الفقهاء أن الدولة إذا ما اضطرت إلى النفقات للجهاد، كان لها أن تفرض على الناس حاجتها من ذلك بالشكل الذي ذكرناه، غير أنهم اتفقوا على أن ذلك مشروط بأن لا يكون في أموال الدولة ما يوضع في نفقات كمالية أو غير مشروعة. إذ أن أموال الناس ليس أولي من أموال الدولة بأن تصرف إلى حاجات الجند والقتال.

هذا، ولقد رأيت كيف أن عثمان بن عفان ﵁ قد جاء إلى النبي ﷺ بثلاثمائة بعير بكل ما تحتاجه من الأقتاب والأجلاس وبمئتي أوقية من الفضة حتى قال رسول الله ﷺ:**(ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم)**. وفي هذا بيان لفضل عثمان ﵁. بل وإن في هذه الكلمة التي قالها عنه ﷺ: (ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم) زجرا وتأديبا لكل من أراد أن يطيل لسانه على عثمان من أمثال أولئك الذين يتشدقون بالنقض على سياسته أيام خلافته، يكتبون الصفحات عن ما يسمونه بمظهر الضعف أو التحيز في سياسته، مقتفين في ذلك ما يطيب للمستشرقين القيام به من إمطار التاريخ الإسلامي بوابل النقض والكذب والتضليل تحقيقا لغاية مرسومة معروفة يتطلعون إليها ويغذون السير للوصول إليها.

إن هؤلاء الذين يضعون أنفسهم في أبراج عالية من النزاهة النادرة، لينطقوا من هناك بأحكامهم على عثمان وسياسته، هم أحوج ما يكونون إلى أن يتحسسوا أمراضهم المختلفة ثم يداووها بدراسة شيء من مناقب هذا الخليفة العظيم والاهتداء بسيرته وسلوكه.

ومهما يكن من شأن عثمان في خلافته، فأي بقية من الأدب توجد عند من يسمع كلام رسول الله ﷺ :**(ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم)**، ثم يمضي بعد ذلك منتشيا بنقده وتسفيه سياسته؟!.

٢- (كلمة عن حديث أبي بكر وما اختلقه البعض من زيادة فيه، ليسوغوا بها بدعة من أهم البدع المحرمة).

ذكرنا الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود، عن تقديم أبي بكر ماله كله للرسول ﷺ، وأنه أجابه ﷺ حينما سأله، ما أبقيت لأهلك: (أبقيت لهم الله ورسوله).

وقد اختلق بعضهم زيادة على الحديث: أن النبي ﷺ قال له:**(يا أبا بكر إن الله راض عنك فهل أنت راض عنه؟)**. فاستفزه السرور والوجد، وقام يرقص أمام رسول الله ﷺ قائلا: كيف لا أرضي عن الله؟!).. ثم ذهبوا يجعلون من هذه الزيادة المختلقة دليلا على مشروعية الرقص والدوران في حلق الذكر على نحو ما يفعل (المولوية) وطوائف أخري من المتصوفة.

فأما الدليل الذي يستندون إليه، فهو دليل مختلق كما ذكرت، ولم يثبت في حديث صحيح ولا ضعيف أن أبا بكر قام بفعل ذلك بين يدي رسول الله ﷺ، كل ما ورد في الأمر هو ما ذكرته من نص حديث الترمذي والحاكم وأبي داود، على ما فيه من احتمالات الضعف التي بينتها في تخريج الحديث.

وأما المدلول، فلا تقول: إنه لم يثبت دليل عليه، بل الحق الذي ينبغي أن يقال: إن الدليل قد ثبت على حرمته. وإليك بيان ذلك:

ذهب الجمهور إلى أن الرقص محرم، إن كان مع التثني، واتفقوا على أنه مكروه إن كان بدون ذلك، فإدخال الرقص - مهما كانت كيفيته - في ذكر الله تعالى، إقحام لما هو مكروه أو محرم في عبادة

مشروعة، وتحويل له بذلك إلى عبادة يتقرب بها إلى الله دون دليل عليها، أو على أنها قد خرجت عن الكراهة أو التحريم.

أضف إلى ذلك ما يتلبس به حال هؤلاء (الذاكرين) من التفوه بأصوات ليست من ألفاظ الذكر في شيء، وإنما هي حمحمات وهمهمات تصاعد من حلوقهم، ليتكون منها دوى متناسق معين ينسجم مع تواقيع المنشدين والمطربين، فتحدث بذلك مزيدا من النشوة والطرب في النفوس.

فكيف يكون هذا ذكر لله تعالى كالذي أمر الله به والذي كان يفعله رسول الله ﷺ وأصحابه؟!.. وكيف يكون هذا العمل عبادة، والعبادة - كما تعلم - هي ما شرعه الله تعالى في كتابه أو سنة رسوله لا يزاد عليها ولا ينقص منها؟!..

واعلم أن هذا الذي نقوله، هو ما أجمع عليه علماء الشريعة الإسلامية في مختلف العصور، لم يشذ عنها إلا قلة مبتدعة شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله فكم من محرمات استحلوها ومن موبقات ارتكبوها، باسم الوجد أو التواجد آنا، وباسم الانتعاق من ربقة التكاليف آنا آخر.

وإليك ما يقوله في هذا إمام من أجل أئمة المسلمين دينا وعلما وورعا وتصوفا وهو العز بن عبد السلام: (وأما الرقص والتصفيق فخفة ورعونة مشبهة لرعونة الإناث، لا يفعلها إلا راعن أو متصنع كذاب، كيف يأتي الرقص المتزن بأوزان الغناء ممن طاش لبه وذهب قلبه، وقد قال ﷺ:(**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**) ولم يكن واحد من هؤلاء الذين يقتدون بهم يفعل شيئا من ذلك).

ويقول مثل هذا الكلام ابن حجر أيضا في كتابه: كف الرعاع، وابن عابدين في حاشيته المشهورة المعتمدة عند السادة الأحناف،

مفرقا بين الوجد القاهر والتواجد المصطنع.

أما الإمام القرطبي فيتوسع في التحذير من هذه البدعة وبيان حرمتها توسعا كبيرا. وإذا أردت أن تقف على كلامه في ذلك فارجع إلى تفسيره، عند قول الله تعالى:{ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ } [آل عمران: ١٩١]، وقوله تعالى:{وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾} [الإسراء: ٣٧].

ولولا الإطالة فيما ينبغي الاختصار فيه لسردت لك نصوص كثير من الأئمة في هذا الشأن، لتعلم أن هذا هو الحق الذي اتفق عليه الأئمة من سلف وخلف لا خلاف فيه ولا نزاع.

* * *

الموقف الثامن والعشرون

(٢٨)

(يوم خـيبر)

الموقف الثامن والعشرون:

يوم خيبر

محاولة أثيمة لليهود.. الشاة المسمومة:

قال أبو هريرة ﵁: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ:(**اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود**) فجمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ:(**إني سائلكم عن شيء فهل أنت صادقي عنه؟**). فقالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله ﷺ:(**من أبوكم؟**) قالوا: أبونا فلان. فقال رسول الله ﷺ:(**كذبتم بل أبوكم فلان**). فقالوا: صدقت وبررت. فقال:(**هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**) قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. قال لهم رسول الله ﷺ:(**من أهل النار؟**) قالوا: نكون فيها يسيرًا ثم تخلفوننا. فقال لهم رسول الله ﷺ:(**اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدًا**). ثم قال لهم:(**فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟**). قالوا: نعم. فقال:(**هل جعلتم في الشاة سمًّا**). فقالوا: نعم. فقال:(**ما حملكم على ذلك؟**). فقالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرك.

قال صاحب بلوغ الأماني عن الشاة المسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم، وكانت سألت أي عضو من الشاة أحب إليه؟ فقيل: الذراع، فأكثرت فيها من السم، فلما تناول الذراع لاك منها مضغة، ولم يسغها، وأكل منها معه بشر بن البراء فأساغ لقمة ومات منها.

وفي مغازي عروة: فتناول الذراع فانتهش منها، وتناول بشر عظمًا آخر، فانتهش منه، فلما أرغم رسول الله ﷺ، أرغم بشر ما في فيه، فقال رسول الله:(**ارفعوا أيديكم، فإن كتف الشاة تخبرني أني قد بغيت فيها**)، فقال بشر بن البراء: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في

أكلتي التي أكلت، ولم يمنعني أن ألفظها إلا أني كرهت أن أنغص طعامك، فلما أكلت ما في فيك لم أرغب بنفسي عن نفسك، ورجوت ألاّ أكون رغمتها وفيها بغي.

وقال ابن القيم: وجيء بالمرأة إلى رسول الله فقالت: أردت قتلك، فقال:**(ما كان الله ليسلطك على)** قالوا: ألا تقتلها؟ قال:**(لا)** ولم يتعرض لها، ولم يعاقبها، واحتجم على الكاهل، وأمر من أكل منها فاحتجم، فمات بعضهم.

وقد اختلف في قتل المرأة، والصحيح أنه لما مات بشر قتلها، ولقد كان السم الذي وضعته اليهودية قويًّا جدًّا إذ مات بشر بن البراء فورًا، وبقي رسول الله ﷺ يعاوده ألم السم حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها. وقد روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرض موته الذي مات فيه:**(يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم)**.

وقد حرص اليهود على قتل رسول الله ﷺ وهموا بقتله، ولكن الله سلم وحفظ نبيه الكريم ﷺ من كيدهم فلجؤوا إلى حيلهم الدنيئة وأفكارهم الخبيثة وأساليبهم الرخيصة التي يجيدونها في كل عصر وزمان، فماذا دبروا؟ وكيف حاولوا قتل رسول الله ﷺ؟ وكيف نجاه الله من مكرهم؟

إن لهذا الموقف قصة يرجع تاريخها إلى غزوة خيبر حيث سار النبي ﷺ في أواخر المحرم في السنة السابعة من الهجرة، وحاصر رسول الله ﷺ أهل خيبر في حصنهم حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم ففعل رسول الله ﷺ.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب ابنة الحارث امرأة سلام ابن مشكم شاة مصلية، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى

رسول الله ﷺ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيه من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها فلما وضعتها بين يدى رسول الله ﷺ تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله فلفظها، ثم قال:(**إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم**)، ثم دعا بها فاعترفت، فقال:(**ما حملك على ذلك؟**) قالت: بلغت من قومى مالم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكا استرحت منه، وإن كان نبيا فسيخبر، فتجاوز عنها رسول الله، ومات بشر من أكلته التي أكل.

واختلف الرواة بعد ذلك، هل قتلها النبي ﷺ قصاصا عن بشرأم لا؟ والصحيح ما رواه مسلم أن النبي ﷺ قال لها:(**ما كان الله ليسلطك على ذلك**) أي على قتلى.. قالوا ألا نقتلها يا رسول الله؟ قال:(**لا**).

وقد قيل: إن المرأة اليهودية أسلمت: ولذلك لم يقتلها النبي ﷺ لأن القاعدة المتفق عليها: أن الإسلام يجب ما قبله.

وأيا كان الأمر فإن الشاهد في هذه الحالة هو قول الرسول ﷺ:(**إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم**) وهذا يعنى أن العظم تحدث إلى رسول الله ﷺ بلغة يعلمها رسول الله ويفقهها، وأن الرسول ﷺ وعى ما أخبره به العظم فأراد أن يؤكد ذلك أمام الناس، ويتحدث بنعمة الله عليه الذي أعطاه القدرة على فهم لغة العظم دون بقية الناس، وهو أمر خارق للعادة كمعجزة تضاف إلى رصيد الرسول ﷺ وتؤكد صدق ما وعد الله له في قوله:{وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ} [المائدة: ٦٧]، كما تؤكد خبث نوايا اليهود وإصرارهم على قتل نبي آخر الزمان سيدنا محمد ﷺ وأيضا تبين هذه الواقعة أن العداوة متأصلة عند اليهود لسائر البشر عامة ولرسول الله ﷺ وأمته خاصة، ولا منجى للمسلمين،

ولا ملاذ لهم من أذى اليهود إلا العتصام بحبل الله المتين وهو القرآن الكريم الذي يقول: {وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾} [آل عمران: ١٠٣ - ١٠٥].

واليقين الراسخ والإيمان القوى الذي قال في كتابه الكريم:{ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾} [النحل: ١٢٨].

ولذا فإن التعامل مع اليهود يحتاج إلى حذر شديد وألمعية متوقدة، وحرص على النجاح وإصرار عظيم وعزيمة قوية على بلوغ الهدف مع توافر القدرة الجبارة على الحوار والمناورة في الحديث مع اختيار الألفاظ وتحديد معانيها وأهدافها لأهم قوم أتعبوا الأنبياء، وكذبوا فريقا منهم وقتلوا الفريق الآخر، ونقضوا عهودهم ومواثيقهم مع الله ومع أنبيائه ورسله إليهم واستغرقوا جل أوقات الرسل في إقناعهم، ومع ذلك فما آمن منهم بهؤلاء الرسل إلا القليل، لذا فإن إيمان المسلمين بقضيتهم وإعدادهم لشعوبهم إعدادا جيدا يتناسب مع الأحداث بأقصى ما يستطيعون مع توحدهم تحت راية واحدة وإصرارهم على الحفاظ على مقدساتهم واثبات ذاتهم يمكن أن يكون من أهم عوامل النصر وإحقاق الحق ونشر العدل والسلام واستتباب الأمن في ربوع البلاد كل البلاد.

فإذا اجتمع المسلمون على كلمة واحدة، وتوحدت أهدافهم، وصفت نفوسهم وأخلصوا دينهم لله، وحرصوا على رضا الحق تبارك وتعالى وخلصت النوايا في أداء العمل بصدق وأمانة لله، وفي

الله تنزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وأمدهم الله تعالى بمدد من عنده وأنزل عليهم جندا من جنده، وأيدهم بنصره كما أيد أهل بدر بالنصر المبين شريطة الإعداد الصحيح والثقة فيما عند الله الذي يهب لعباده المؤمنين بشائر الخير والنصر المبين.

* * *

الموقف التاسع والعشرون

(٢٩)

(المرض الأخير والوفاة)

الموقف التاسع والعشرون: [المرض الأخير والوفاة]

نعلم أن النبي ﷺ أوصي بإخراج المشركين من جزيرة العرب، وأوصي بإجازة الوفد كما كان يجزهم ﷺ وأوصى بثالثة فنسيها الراوي وقال العلماء: لعله أوصى بإنفاذ جيش أسامة.

وأوصي بأن تغلق الأبواب المفتوحة على المسجد إلا باب أبي بكر فقال ﷺ :(**لا تبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر**). وهذه من الإشارات لاستخلافه رضي الله عنه. ومن هذه الإشارات حرصه ﷺ وتأكيده بأن يصلي أبو بكر رضي الله عنه بالناس. عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ قال في مرضه:(**مروا أبا بكر يصلي بالناس**)، قالت عائشة: قلت: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل للناس، فقالت عائشة: فقلت لحفصة: قولي له إن أبا بكر إذا قام من مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل للناس. ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ :(**إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس**). فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيرا [١].

وأوصى النبي ﷺ بالأنصار خيرا، عن أنس قال: (مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ فينا فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد، قال: فصعد المنبر - ولم يصعده بعد ذلك اليوم - فحمد الله وأثني عليه ثم قال:(**أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**) [٢].

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري، كرشتي وعيبتي أي: موضع سري وأمانتي وقيل جماعتي وخاصتي.

وأوصي ﷺ بتعظيم الرب عز وجل في الركوع والاجتهاد في الدعاء في السجود كما أوصي ﷺ بالصلاة.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كشف رسول الله ﷺ الستار والناس صفوف خلف أبي بكر فقال:**(أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تري له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعا أو ساجدا، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم)** (١).

وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: **(الصلاة وما ملكت أيمانكم)**، فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه (٢).

ومن ذلك أنه ﷺ نهي عن بناء المساجد على القبور. عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة جعل يلقي على وجهه طرف خميصة فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو يقول:**(لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)**. تقول عائشة: يحذر مثل الذي صنعوا (٣).

قال الحافظ: وكأنه ﷺ علم أنه مرتحل من ذلك المرض فخاف أن يعظم قبره كما فعل من مضى فلعن اليهود والنصاري إشارة إلى ذم من يفعل فعلهم (٤).

ومن ذلك أنه ﷺ أوصى عثمان رضي الله عنه بالصبر على البلاء الذي سيصيبه وأن لا يتنازل عن الخلافة.

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه:**(وددت أن عندي بعض أصحابي)** قلنا: ألا ندعو لك أبا بكر؟ فسكت، قلنا: ألا ندعو لك

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه البخاري.
(٤) فتح الباري.

عمر؟ فسكت، قلنا: ألا ندعو لك عثمان؟ قال: نعم. فجاء فخلا به، فجعل النبي ﷺ يكلمه ووجه عثمان يتغير. قال قيس: فحدثني أبو سهلة مولي عثمان بن عفان قال يوم الدار: إن رسول الله ﷺ عهد إلى عهدا فأنا صائر إليه. وقال على في حديثه: وأنا صابر عليه. قال قيس فكانوا يرونه ذلك اليوم [١].

الساعات الأخيرة من حياة المصطفي ﷺ :

اشتد وجع النبي ﷺ وذلك لمضاعفة أجره ورفع درجته.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فمسسته بيدي فقلت: يا رسول الله إنك لتوعك وعكا شديدا. فقال رسول الله ﷺ :**(أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم)** قال: فقلت: ذلك أن لك أجرين. فقال رسول الله ﷺ :**(أجل)** ثم قال رسول الله ﷺ: **(ما من مسلم يصيبه أذي من مرض فما سواه إلا حط الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها)** [٢]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله ﷺ [٣].

وخرج النبي ﷺ في صبح اليوم الذي لحق فيه بالرفيق الأعلي ينظر إلى ثمرة جهاده وصبره فألقى على أصحابه الذين أحبوه وأحبهم نظرة وداع فكادوا يفتنون من الفرحة به ﷺ ظنا منهم أنه ﷺ قد عوفي من مرضه، ولم يظنوا أنه ينظر إليهم نظرة الوداع حتى يلتقي بهم على حوضه وفي جنة الله عز وجل، ولو علموا ذلك لتفطرت قلوبهم. عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين - وهم صفوف في الصلاة - كشف النبي ﷺ ستر الحجرة، فنظر إلينا وهو

(١) رواه ابن ماجه.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.

قائم كأن وجهه ورقة مصحف ثم تبسم يضحك، فههمنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ فنقص أبو بكر على عقبه ليصل الصف وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم وأرخي الستر فتوفي من يومه) [١]. ثم لم تأت على النبي ﷺ صلاة أخرى.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (دخل على عبد الرحمن وبيده السواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك. فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه:**(أن نعم)** فتناولته فاشتد عليه، قلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه:**(أن نعم)** فلينته، فأمره وبين يديه رقوة أو علبه - يشك عمر - فيها ماء فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه يقول:**(في الرفيق الأعلى)** حتى قبض ﷺ ومالت يده) [٢] وفي رواية قالت: مات رسول الله ﷺ وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي فلا أكره شدة الموت لأحد أبدا بعد النبي ﷺ [٣].

وكان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ :**(اللهم الرفيق الأعلى)**.

عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقول وهو صحيح: إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال:**(اللهم الرفيق الأعلى)** فقلت: إذا لا يختارنا وعرفت أنه الحديث الذي يحدثنا وهو صحيح قالت: فكان لآخر كلمة تكلم بها:**(اللهم الرفيق الأعلى)** [٤].

---

(١) البخاري ومسلم.
(٢) البخاري.
(٣) البخاري، والحاقنة ما سفل من الذقن، والذاقنة ما علا منه.
(٤) البخاري.

وعن أنس قال: لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه فقالت فاطمة - عليها السلام - وا كرب أباه، فقال لها:(**ليس على أبيك كرب بعد اليوم**)، فلما مات قالت: يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دفن قالت فاطمة رضي الله عنها : يا أنس أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب [(١)] كل المصائب تهون عند هذه المصيبة.

كانت الجمادات تتصدع من فراق رسول الله ﷺ فكيف بقلوب المؤمنين، لما فقده الجزع الذي كان يخطب إليه حن إليه الجزع وصاح كما يصيح الصبي، كان الحسن يقول: خشبة تحن إلى رسول الله ﷺ فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه. قال في تسلية أهل المصائب: ومن أعظم المصائب في الدين موت النبي ﷺ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم لأن بموته ﷺ انقطع الوحي من السماء إلى يوم القيامة وانقطعت النبوات، وكان موته أول ظهور الشر والفساد بارتداد الذين ارتدوا عن الدين من الأعراب، فهذا أول انقطاع عري الدين ونقصانه وغير ذلك من الأمور التي لا تحصى.

قال أبو العتاهية مسليا بعض إخوانه في ولد له اسمه محمد:

اصبر لكل مصيبة وتجلد ::: واعلم بأن المرء غير مخلد
أو ما تري أن المصائب جمة ::: وترى المنية للعباد بمرصد
من لم يصب ممن ترى بمصيبة ::: هذا سبيل لست فيه بأوحد
فإذا ذكرت محمدا ومصابه ::: فاذكر مصابك بالنبي محمد

(١) البخاري وأحمد.

عن أنس ﷺ قال: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شئ وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا) [١].

قال الأستاذ سعيد حوى ـ رحمه الله ـ:

قوله: (وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا): فيه رد على من ادعي أن حال الصحابة ورقيهم الروحي لا يفسر بوجود رسول الله ﷺ على رأسهم وهو قول انتشر في هذا العصر ويكفي في رده قوله جل جلاله في حق رسول الله ﷺ :{وَيُزَكِّيهِمْ} [البقرة: ١٢٩]، كما أن في هذا الحديث ما يدل على أن الراقي القلبي منوط بالاجتماع مع أهل الحق والارتباط الروحي فيهم ومن ها هنا نؤكد على الانتساب للعلماء العاملين والربانيين المخلصين ونؤكد على الأخذ منهم ومجالسة الصالحين من عباد الله [٢].

وقال الحافظ ابن رجب - رحمه الله -: لما توفي ﷺ اضطرب المسلمون فمنهم من دهش فخولط، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام ومنهم من أنكر موته بالكلية وقال: إنما بعث إليه [٣].

وقال الأستاذ منير محمد الغضبان ما ملخصه:

ونقف قليلا عند بعض المعاني التي يحسن أن نستشعرها ونتأسى بها في وفاة رسول الله ﷺ :

• حادث الوفاة نفسه وأثره الوجداني والشعوري على نفوس المسلمين وأن يغيب عن الدنيا أكمل إنسان فيها وأعظم إنسان فيها وما

(١) الترمذي وابن ماجه.
(٢) الأساس في السنة.
(٣) لطائف المعارف.

فقدته البشرية ورزئت به من غياب شخصه ﷺ عنها وهو أمر جلل لا يعدله مصيبة لقد غاب عن هذه الأرض سيد ولد آدم، أعظم القادة وأعظم المربين وأعظم الدعاة وأعظم الأخلاقيين وأعظم الحكام وأعظم العلماء وأعظم المفكرين وأعظم البشر خاتم النبيين ورسول رب العالمين.

• وكانت هذه السنوات القليلة من تاريخ البشرية هي أعظم سنواتها وأبرك حياتها وتكون أعظم في هذا الوجود.

ولا بد أن يستشعر الداعية المسلم دائما وأبدا هذه المعنى وأن مصابه بالنبي ﷺ لا يعدله مصاب [١].

قال الشيخ الغزالى: ويتسرب النبأ الفادح من البيت المحزون وله طنين في الآذان وثقل ترزح تحته النفوس وتدور به البصائر والأبصار.. وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت فتركتهم لوعة الثكل حيارى، لا يدرون ما يفعلون [٢].

* * *

(١) فقه السيرة - للغضبان -.
(٢) فقه السيرة - للغزالي -.

مواقف الصحابة رضي الله عنهم واختيار الخليفة قبل دفن الجسد الشريف

عن عائشة ﵂ قالت: إن رسول الله ﷺ مات، وأبو بكر بالسنح - قال إسماعيل: تعني بالعالية - فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله فيقطعن أيدي رجال وأرجلهم. فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله فقال: بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدا.

وهكذا انتهت حياته صلي الله عليه وسلم البدنية الجسدية الحيَّة، إلا أن ذكره موجود في كل وقت وحين وفي الدنيا إلى يوم الدين بصفاته وسنته وخُلقه وبتبليغه دين رب العالمين - وبحفظ الله له ذلك إلى يوم الدين.

* * *

الموقف الثلاثون

(٣٠)

إنا كفيناك المستهزئين

الموقف الثلاثون:
إنا كفيناك المستهزئين

الهدف من بعثة الأنبياء والمرسلين كما أخبر رب العالمين:{ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾} [النساء: ١٦٥]. وقد أخبر النبي ﷺ عن نفسه فقال:(**مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بني بيتا وشيده وجمله إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون به ويقولون: ما أجمله وما أحسنه هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم الأنبياء والمرسلين**) وقد أخبر ربنا في كتابه عن نبيه ومصطفاه بقوله:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾} [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦]، وأثني الله على خلق نبيه بأدوات التأكيد مؤكدا:{ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾} [القلم: ٤]، وكأن الأخلاق جعلت له بساطا يمشي عليها وأثنت أم المؤمنين عائشة عن رسول الله ﷺ بقولها: (كان خلقه القرآن - كان قرآنا يمشي على الأرض) [١]، وقال النبي ﷺ :(**والله لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**) حتى أنه مع عمر رضي الله عنه أخبر النبي ﷺ بحبه أكثر من نفس الإنسان التي بين جنبيه، من خلال هذه النصوص وغيرها الكثير والكثير يتضح لنا مقام النبي الشريف ﷺ إلا أننا نلحظ ما بين وقت وآخر ولا سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر وما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية يُطِل علينا من يسيء إلى رسول الله ﷺ بالكلام أو بالرسم أو بالتمثيل وهم يقصدون بذلك الإساءة لنبي الإسلام، والحقيقة أن هذه تراهات لا وزن لها ولا قيمة وهي قديمة وملازمة لمبعثه ﷺ وذلك أوردناه من خلال الصفحات السابقة ومع بداية دعوته يقف له عمه بالمرصاد

(١) رواه أصحاب السنن.

وتتنزل (سورة المسد) في عمه وزوجه وكانوا يقولون عنه مذمما فكيف صرف الله ذلك عنه، وفي بداية حياته المدنية ومع غزوة بدر الكبري ومن سماع شابين صغيرين (معاذ ومعوذ) من أن أبا جهل يسب رسول الله ﷺ وما فعلاه به ثم جاء ابن مسعود وتفقد الجثث وأكمل عليه - والحقيقة أنه بموت رسولنا ﷺ وبعد أداء رسالته على أكمل وجه - فما يحدث ليس لشخصه وإنما لمن هو تبع له ويحمل أعباء الدعوة والرسالة. حيث قال ﷺ :(**يوشك أن تداعي عليكم الأمم كما تداعي الأكلة إلى قصعتها**) قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله. قال:(**بل كثير ولكن غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم وليقذفن في قلوبكم الوهن**). وقالوا: وما الوهن

يا رسول الله؟ قال:(**حب الدنيا وكراهية الموت**) ولنعلم أن عدد الدول الإسلامية ٥٦ دولة أي ما يعادل ربع سكان القرى الأرضية وعددهم قرابة مليار ونصف المليار وأصبح الغرب يصفون المسلمين والعرب بأنهم ظاهرة صوتية وذلك عن طريق المظاهرات التي يخرب فيها البعض وهي تفريغ لشحنات، وللأسف يتبعها مقاطعة لمنتجات لعدة أيام، وسرعان ما ينتهي الأمر، إن الغرض من الفيلم المسيء الذي عرض مؤخرا والذي لا يحمل لغة دينيه أو لغة عربية إنما لهجة تمثيل مصرية الغرض منها هو شحن النفوس وإحداث الفتنة الطائفية حتى لا تستقر البلد، وتقوم لها قوامة من جديد، هذا ما جعل نائب الرئيس الأمريكي يقول: (إن إله المسلمين لا يستطيع الصمود أمام إله المسيحيين)، وإذا كنا نقول أن لحوم العلماء مسمومة فكيف بلحوم الأنبياء ولا سيما نبينا ﷺ وإذا كان الله يقول في الحديث القدسي:(**من عادي لي وليا فقد آذنته بالحرب**) فكيف بلحوم الأنبياء ولا سيما نبينا ﷺ، والسؤال الآن:

كيف نغضب لربنا ولنبينا ولديننا؟؟

الإجابة تتمثل في عدة محاور هامة لها فكاك منها ولا بد من تكاتفها!

١) دور الحكام المسلمين لا بد وأن يكون له دور إيجابي فعال على الساحة العالمية فلا يقفون موقفا سلبيا.

٢) دور المؤسسات الدينية الإسلامية. هل أصبح دورها أن لها اسما على الورق، وفقط أم لا بد من تفعيل الدور بصورة واضحة ومباشرة لمكانتها في قلوب المسلمين.

٣) دور العلماء والدعاة وإيضاح شخص النبي ﷺ وأخلاقه.

٤) جمهور المسلمين بإعادة هيكلة البيت المسلم والاكتفاء الذاتي والاستغناء عن المستورد، وتعلم الأبناء سماحة الإسلام وحب القرآن والأنبياء والالتجاء إلى الله، والإنتاج وصدق النية والعمل، وحب الدين.

وأخيرًا:

فإن الطحالب العائمة لا توقف السفن الماخرة ولا يشين السماء نباح الكلاب؟ وأن أي إهانة لرسول الله ﷺ تعني: (صفعة على أقفية من ينتمون له) وصدق الله حيث قال:{وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ } [الشعراء: ٢٢٧].

* * *

كلمة أخيرة

بعد ذلك الحديث المجمل عن تلك الأيام في حياة خاتم الرسل والأنبياء فما أهم النتائج أو الدروس المستفادة من هذه الأحداث؟ وماذا توحي به من توصيات وتوجيهات؟.

أما الدروس المستفادة من هذه الأحداث فيمكن إجمالها في النقاط التالية: -

أولا: عاش محمد ﷺ في دعوته منذ أوحي إليه، وجاءه أمر الله بأن يصدع بالحق، ويجهر بالخير حتى لحق بالرفيق الأعلى حياة اتسمت بالصراع مع الباطل، وما كان هذا الصراع وما تمخض عنه من عنت وطغيان للرسول والذين اتبعوه إلا قوة دافعة للصبر والمصابرة، والجهاد في سبيل أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلي..

ثانيا: كان محمد ﷺ في دعوته إلى الله صورة مشرقة للخلق الإسلامي، فقد حاول بالتي هي أحسن وسلك كل سبيل يتيح له أن يبلغ ما بعث به، وما كان يقف من الذين عادوه وآذوه إلا موقف الحليم الرحيم الذي يسأل ربه أن يهدي قومه وما قال كما قال غيره من الأنبياء:{رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾} [نوح: ٢٦ - ٢٧]، وإنما كان يقول: **(اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون).**

ثالثا: كان الرسول ﷺ يشاور أصحابه، ويأخذ برأي الأغلبية، وإن خالف ما يذهب إليه، وهو بهذا يضرب المثل لكل قيادة بألا تستبد أو تلغي رأي الرعية، لأن الشورى تعد القاعدة الصعبة لنظام الحكم في الإسلام فمن استعان بها تأيد حكمه، ومن استهان بها لم يرشد.

رابعا: كان المنهج العلمي سمة بارزة في حياة محمد، ولهذا كان النجاح حليفه في كل مراحل حياته، وما نال الأمة في عصره من عثرات إلا بسب مخالفة المنهج الذي أخذ به، وهذا يعني أن على الأمة في حاضرها أن تأخذ بالمنهج العلمى في كل شأن من شؤون حياتها حتى تستعيد تاريخها المشرق بالقوة والعزة والحضارة الإنسانية.

خامسا: إن أصابع اليهود في حياة محمد كانت وراء كثير مما تعرض له، فهم قد غدروا وتآمروا ومات الرسول شهيدا بسبب لحم الشاة المسمومة التي قدمتها له امرأة يهودية غادرة، وفي ذلك ما يؤكد أن عداوة اليهود للأمة في حاضرها ترتد إلى عصر البعثة، وأن التاريخ في كل عصوره لم يسجل لليهود إلا الحقد الدفين والتآمر الخسيس ضد الإسلام والمسلمين فلا غرو أن وصفهم القرآن الكريم بأنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين.

والقضية خطيرة وتهدد مستقبل الأمة، ولا سبيل لدفع هذا الخطر الذي تحميه وتؤازره دول كبري تزعم أنها تحمي الحريات، وتحافظ على حقوق الإنسان، وتدعوا إلى الديمقراطية إلا بوحدة جامعة وتعاون صادق واعتصام بحبل الله..

وأما ما توحي به تلك الأيام من توجيهات ودروس فأهمها أن نأخذ الحياة بجد وعمل، فالرسول في مدة بعثته التي بلغت نحو ثلاث وعشرين سنة كان العمل المتواصل هو منهج حياته، خاض معارك كثيرة، وواجه مشكلات متنوعة، ولكنه انتصر في النهاية، والأمة اليوم في حاجة ملحة إلى عمل مخلص في كل ميدان من ميادين الحياة، عمل تسدد خطاه الروح الإسلامية، حتى يكون هذا العمل من أجل أن تسود كلمة الحق، وأن يخنس صوت الباطل، وأن تعيش الأمة حياة العزة والكرامة وحتى تظل بحق خير أمة أخرجت للناس [١].

* * *

(١) الرسول الأعظم صلي الله عليه وسلم .

وقفة اعتبار

لعله بعد هذا البيان، ومامر برسول الله ﷺ من أحداث جسام وما أصابه من ظلم واضطهاد وعذاب وهو رسول الله ﷺ ما طلب من أحد شيئا غير أنه قال ربى الله، لعلنا نعتبر بذلك ونأخذ العظة مما حدث له ﷺ ومدى المعاناة التي حدثت لرسول الله ﷺ حتى يصل إلينا هذا الدين على طبق من ذهب، فماذا فعلنا له؟ وماذا أعددنا له؟ وهل سعينا في نشره وعرضه على الناس في جو من الأمن والأمان والحرية والاطمئنان؟ ثم بعد ذلك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

اعتذار

عذرا سيدى يا رسول الله مهما كتبت الأقلام، ونطقت الأفواه، ومدح الشعراء فلن نستطيع أن نوفيك حقك، وذلك لعجزنا وتقصيرنا، ولكن حسبنا أننا نتلمس طريق الصواب لعلنا ننال شفاعتك يوم القيامة.

وانسب إلى ذاته ماشئت من شرف ::: وانسب إلى فضله ماشئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له ::: حد فيعرب عنه ناطق بفم

* * *

أين المدافع عن جناب محمد؟ [١]

أعلى الشفيع تجاسروا بسباب؟ ::: أعلى الحبيب وأعظم الأحباب؟
أعلى الذي لولاه ماخلق الورى ::: أبدا وكانوا خلاف تراب؟
أيكون هذا رغم أن رجاله ::: في الكون أعداد بغير حساب؟
أواه من ذلك الزمان وأهله ::: أواه من خلق كمثل ذئاب
ياساكنى الدانمارك كيف جرأتمو ::: في سب من هو طيب الألقاب
بمحمد تستهزئون فويحكم ::: بل ويلكم يا معشر الأوشاب
أعلمتوا من تشتمون أم أنكم ::: عميان أم أغشيتمو بحجاب
علم النبوة خاتم الرسل الألى ::: جاؤوا إلى الدنيا بنهج صواب
البدر كيف يعيبه نقع الثرى ::: هذا عجاب فوق كل عجاب
أيعاب أحمد ذو الفضائل والنهى ::: أيعاب من هو منحة الوهاب

(١) قصيدة للشاعر: عبد الله الجعبيدي، نشرت في جريدة الأزهر.

بل نعمة " وهدية " نحو الورى ::: كفروا بها وتمسكوا بتباب
قوم من الدانمارك ضاع رشادهم ::: وتهجموا في خسة وتغابى
من لى بقطع لسانهم من أصله ::: كى يعجزوا عن رد أي جواب
ما هؤلاء سوى وباء مهلك ::: يقضى على الأرواح والألباب
لاحق يدعى في الحياة لمثلهم ::: فبهم شبيه من سعار كلاب
بل في الكلاب من الهدى في قلبه ::: ويحب طه طاهر الأنساب
أنا لا أجادل عن صفات المصطفى ::: كلا ولست بذا الكلام أحابى
فصفاته وخصاله ومقاله ::: كل يؤكد أعظم الآداب
والله يشهد والملائك كلهم ::: أن النبي مبرأ من عاب
بل من يعيب محمد في لفظة ::: سيكون بئس الظالم الكذاب
ولتسألوا التاريخ كم من معجب ::: بمحمد في غاية الإعجاب
كم أسلمت أمم لشدة حبهم ::: لكماله المتألق الجذاب
من ذا يدافع عن جناب محمد ::: من ذا يدافع عن أعز جناب
يا أمة الإسلام أين كرامة ::: فينا وقد عاشت مدى الأحقاب
اليوم ديست في التراب وضيعت ::: واليوم قد غابت أشد غياب
ما إن يدافع مسلم عن حقه ::: حتى يقال بأنه إرهابى
سنظل في أقصى الهوان، لأننا ::: صرنا نعيش كمثل عيش دواب
ولقد رحلنا في المعاصى رحلة ::: طالت بغير تراجع وإياب
يامسلمون متى نعود لديننا ::: ومتى نعود لديننا بشباب
للدين جلباب إذا لم... نحمه ::: لم نستحق الستر بالجلباب
لاتحسبوا ماتشهدون نهاية ::: بل ذاك غيم لاح بين سحاب
ما للمقصر في أوامر ربه ::: إلا عذاب لاحق بعذاب
فبكل يوم سوف يصبح شأننا ::: من بين كل الخلق غير مهاب
عار عليكم في السكوت ووصمة ::: كبرى بلا ماح ودون ذهاب
إن السكوت على الإهانة سابقا ::: جعل الهوان مفتح الأبواب
عذرا رسول الله إنا كلنا ::: ضعفاء لم نصلح ليوم ضراب
نحيا كقطعان تفرق شمله ::: وعدا عليها كل أسد الغاب
ولأخذ ثأرك لانطيق لأننا ::: من غير ما قدر لدى الأغراب
فاغفر لنا الخزى الذي صرنا به ::: أضحوكة نسبت إلى الأعراب
ولينتقم ممن أهانك سيدى ::: رب العباد وحاكم الأرباب

* * *

صدر للكاتب

(بحـول الله وقوتـه)

أولا: (البداية والنهاية في الخطب المنبرية)

تناول فيها المؤلف مراحل حياة الإنسان (الطفولة - الشباب - الشيخوخة) ثم مشاكل كل مرحلة وكيفية العلاج بأسلوب شرعى تربوى، ثم تناول مرحلة النهاية وما يمر به الإنسان بعد مفارقته للحياة وصولا إلى إحدى الدارين.

ثانيا: (وقفات إيمانية مع المناسبات الدينية)

استعرض فيه الكاتب المناسبات الدينية على مدار العام بأسلوب خطابى جديد مستلهما منها الدروس والعبر ومدى احتياجنا إليها في حياتنا اليومية.

ثالثا: (عمل الإنسان في ميزان الإسلام)

بيَّن فيه المؤلف أن كل عمل يستطيع الإنسان أن يحصل به على ثواب العبادة، بدلا من أن يكون عادة حتى الأخلاق التي حث عليها رسول الله ﷺ ومدى ثقل ذلك في ميزان الإسلام.

رابعا: (القول المبين في تاريخ الكعبة ومسجد خاتم النبين ﷺ)

سبح فيه الكاتب بالنفس في مواطن العزة والكرامة حيث البيت العتيق ومسجد خاتم الأنبياء والمرسلين، وذلك على مرَّ العصور والأزمان حتى عصرنا الحاضر وما طرأ على ذلك من إنشاءات واهتمامات.

خامسا: (درة الواعظين وإرشاد الحائرين)

الإسلام دين حقوق، وآداب وتعاليم - استخلص فيه المؤلف مجموعة رائعة من هذه الحقوق والآداب والابتلاءات التي تواجه الأمة كي تأخذ دورها الريادي من جديد

سادسا: (مواقف عصيبة من حياة الرسول ﷺ)

غاص المؤلف واستخرج وبيّن أهم مواقف الشدة والمحن التي مرَّ بها رسول الله ﷺ على مدار حياته، وكيف صبر وجاهد مبينا الدروس والعبر لعل الأمة الإسلامية تعود إلى قوتها من جديد.

سابعا: (زاد المشتاقين إلى جنة رب العالمين)

ما أكثر تعاليم الإسلام وأوامره رسم لنا فيه المؤلف بعض الزاد الذي يحتاجه كل مشتاق إلى جنة رب العالمين بأسلوب عصري فريد.

* * *

صدر للمؤلف
هذه المجموعة الرائعة من المؤلفات
بفضل الله جل وعلا

البداية والنهاية فى الخطب المنبرية
تأليف
يوسف عبد الغنى كيوان
ط أولى ثانية
٢٠٠٨ م

وقفات إيمانية فى المناسبات الدينية
تأليف
يوسف عبد الغنى كيوان
الطبعة الأولى
٢٠١٠ م

القول المبين فى تاريخ الكعبة ومسجد خاتم النبين ﷺ
تأليف
يوسف عبد الغنى كيوان
ط الأولى الثانية
٢٠٠٨ م
٢٠١٠ م

عمل الإنسان فى ميزان الإنسان
تأليف
يوسف عبد الغنى كيوان
الطبعة الأولى
٢٠١١ م
مكتبة الإيمان بالمنصورة

درة الواعظين وإرشاد الحائرين
تاليف
يوسف عبد الغنى كيوان
ط الأولى الثانية
٢٠٠٨
٢٠١٢ م

مواقف عصيبة في حياة الرسول ﷺ
تأليف
يوسف عبد الغنى كيوان
الطبعة الأولى
٢٠١٢ م

زاد المشتاقين إلى جنة رب العالمين
تأليف
يوسف عبد الغنى كيوان
الطبعة الأولى
٢٠١٢ م

قائمة المراجع

- القرآن الكريم
- البداية والنهاية — الحافظ ابن كثير
- الجامع لأحكام القرآن — العلامة القرطبي
- الرحيق المختوم — المباركفوري
- الرسول ﷺ — سعيد حوى
- الرسول الأعظم ﷺ — د/ عبد العزيز المرشدي
- الرسول معلما.. ومربيا — عبد التواب يوسف
- إمتاع الأسماع — المقريزى
- أيام في حياة محمد — د/ محمد الدسوقي
- السيرة النبوية في ضوء روايات الطبرى — هدية (مجلة الأزهر)
- السيرة النبوية — د/ الطيب النجار
- السيرة النبوية دروس وعبر — د/ مصطفى السباعي
- السيرة النبوية — ابن هشام
- السيرة النبوية — د/ محمد على الصلابي
- المنهج الحركى للسيرة النبوية — د/ منير الغضبان
- النبي الخاتم — د/ عبد الغفار هلال
- القول المبين في تاريخ الكعبة ومسجد خاتم النبيين — يوسف عبد الغنى كيوان
- تاريخ مكة — د/ إلياس محمد عبد الغني
- تاريخ المدينة المنورة — د/ إلياس محمد عبد الغني
- تفسير القرآن العظيم — الحافظ ابن كثير
- حياة محمد — محمد حسنين هيكل
- زاد المعاد في هدى خير العباد — العلامة ابن القيم
- سبل الهدى والرشاد — الصالحي
- صحيح مسلم — الإمام مسلم
- صفحات من سيرة الرسول — إصدار وزارة الأوقاف المصرية
- صفوة التفاسير — محمد على الصابوني
- صحيح البخاري — الإمام البخاري
- فقه السيرة — د/محمد سعيد رمضان البوطي

* * *

الفهـرس

* * *